أبو المظفر السمعاني ومنهجه

في تفسير القرآن

بقلم

الدكتور

السيد إسماعيل علي سليمان

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بكلية أصول الدين بالقاهرة — جامعة الأزهر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، أنزل على رسوله الكتاب المبين ، هدى وموعظة للمتقين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون . وجعله رحمة للعالمين . وخصه بمعجزة القرآن الذى فرق به بين الشك واليقين . وعلى آله وصحبه الذين حملوا رسالة الإسلام ، ورفعوا راية القرآن ، وجاهدوا فى الله تعالى حق جهاده . أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب .

وبعد :

فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على سيدنا محمد — ﷺ — بلسان عربى مبين ، ليبشر به المتقين ، وينذر به الكافرين ، « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »[1] .

ولقد كان هذا القرآن ولا يزال هو دستور الإسلام الذى وضعه الله تعالى لعباده ، ينظم لهم شئون الحياة ، ويبين لهم الحقوق والواجبات ويهديهم للتى هى أقوم فى العقائد والعبادات ، والأخلاق والمعاملات .

قال تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً »[2] .

---

(١) أول سورة هود .

(٢) الآية ٩ من سورة الإسراء .

ولقد أدرك المسلمون الأوائل عظم شأن القرآن ، وأهميته البالغة فى تنظيم حياتهم ، وتقويم أخلاقهم ، وتهذيب سلوكهم ، ومن ثم فقد اهتموا به اهتماماً كبيراً ، وقام علماء الإسلام - عبر العصور - على إحاطته بكل أسباب الرعاية والعناية من جميع الجوانب ، وكان من أبرز هذه الرعاية والعناية هو تفسير آياته للناس لعلهم يهتدون .

وظل اهتمام علماء الإسلام بدراسة القرآن طوال العصور التاريخية المتعاقبة ، مع تنوع هذه الدراسة ، من حيث تفسيره وبيان إعجازه وقصصه تارة ، ومن حيث أحكامه وقراءاته ومعانيه وإعرابه ، ومشكله ومجازه وقصصه تارة أخرى ، إلى غير ذلك من الدراسات المختلفة التى كانت تدور حول القرآن ، ووجوه هدايته وأسرار إعجازه .

وكان من هؤلاء العلماء الأجلاء الذين وقفوا أنفسهم على دراسة القرآن وبيان معانى كلماته ، وأسرار بلاغته أبو المظفر السمعانى الذى قام بجهد عظيم فى تفسير كتاب الله تعالى .

ولقد قمت بدراسة هذا التفسير العظيم دراسة متأنية وافية ، وتولد من خلال هذه الدراسة هذا البحث المختصر الذى يحتوى على ثلاثة مباحث وخاتمة .

المبحث الأول : بعنوان : « نشأة أبى المظفر السمعانى وحياته العلمية » .

والمبحث الثانى : بعنوان : « منهج أبى المظفر السمعانى فى التفسير » .

والمبحث الثالث : بعنوان : « موقف السمعانى من قضايا علوم القرآن » ، والخاتمة اشتملت على أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال هذا البحث المتواضع ، وإليك بيان ذلك بالتفصيل فيما يلى :

المبحث الأول

نشأة أبى المظفر السمعانى وحياته العلمية

أولا : نسبه ومولده :

هو الإمام أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد بن محمد بن جعفر بن أحمد بن عبد الجبار بن الفضل بن عبد الله التيمى السمعانى ، الحنفى كان ، ثم الشافعى .

والسمعانى : بفتح السين المهملة ، وسكون الميم وفتح العين المهملة وفى آخرها النون ، وهذه نسبة سمعان ، وهو اسم لبعض أجداد أبى المظفر ، وأما سمعان الذى ينتسب إليه فهو بطن من تميم .

ولادته : كانت ولادة أبى المظفر السمعانى فى شهر ذى الحجة سنة ست وعشرين وأربعمائة هجرية . وكانت ولادته بمدينة مرو الشاهجان ، وهى من مدن خراسان[1] .

---

(١) انظر ترجمة أبى المظفر فى كتاب الأنساب ٢٩٩/٣ ، وسير أعلام النبلاء ١١٤/١٩ - ١١٩ ، والعبر فى أخبار من غبر ٣٢٦/٣ ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٥ / ٣٣٥ - ٣٤٦ ، اللباب فى تهذيب الأنساب ١٣٨/٢ ، ١٣٩ والبداية والنهاية ١٥٣/١٢ ، وطبقات المفسرين للداودى ٢/ ٣٣٩ - ٣٤٠ ، وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٣٩٣/٣ ، ٣٩٤ ، وهداية العارفين ٤٧٣/٢ وكشف الظنون ٤٤٩/١ ، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢١١/٣ .

ثانياً : نشأته العلمية :

لقد نشأ السمعانى ـ أول ما نشأ ـ فى مدينة « مرو » إحدى مدن خراسان فى أسرة مشغولة بطلب العلم وتحصيله ، فتعلم فى مقتبل عمره ، كما يتعلم أبناء عصره ، وأقبل على طلب العلم بكل جد ونشاط ، وقد ساعده على ذلك مامنحه الله تعالى من قوة فى الحفظ وسعة فى الفهم حيث قال عن نفسه : ما حفظت شيئا قط فنسيته[1] .

شيوخه وتلامذته :

ذكرت كتب التراجم كثيراً من الشيوخ الذين التقى بهم أبو المظفر السمعانى وأخذ عنهم العلم . وكان من أهم من أخذ عنهم وسمع منهم ما يلى :

والده أبو منصور محمد بن عبد الجبار ، حيث تفقه عليه وأخذ عنه الفقه الحنفى .

وسمع أبا غانم أحمد بن على الكراعى ، وأبا بكر بن عبدالصمد الترابى المعروف بابن أبى الهيثم ، وعبد الصمد بن المأمون وطبقته ببغداد ، وأبا صالح المؤذن ونحوه بنيسابور ، وأبا على الشافعى ، وأبا القاسم الزنجانى ، وأبا حاجب محمد بن اسماعيل الاستراباذى ، وأبا الحسين بن المهتدى ، وأبا جعفر بن المسلمة ، وابن هزار مرد الصريفينى ، وهياجا الحطينى ، وجماعة كثيرة بخراسان ، والعراق ، وجرجان ، والحجاز[2] .

(١) طبقات المفسرين للداودى ٢ / ٣٣٩

(٢) الأنساب ٢٩٩/٣ وطبقات الشافعية ٣٣٨/٥

تلامذته :

وكان ممن تتلمذ على أبى المظفر السمعانى وروى عنه أولاده : أبو بكر محمد ، وأبو محمد الحسن ، وأبو القاسم أحمد .

وروى عنه أيضا : أبو حفص عمر بن محمد بن على السرخسى ، وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المروزى ، وأبو نصر محمد بن محمد بن يوسف القاشانى ، وأبو القاسم الجنيد بن محمد بن على القاضى بهراة وأبو طاهر محمد بن أبى بكر السنجى ببلخ ، وأبو بكر أحمد بن بشار الجرجردى بنيسابور ، وأبو البدر حسان بن كامل بن صخر القاضى بطوس ، وأبو منصور محمود بن أحمد بن عبد المنعم بن ما شاذة بأصبان ، وجماعة كثيرة يزيدون على خمسين نفراً[1] .

آثاره العلمية :

حفظت لنا مصادر ترجمة أبى المظفر السمعانى قائمة بأسماء مؤلفاته فى التفسير والحديث والفقه والأصول ، وكان من أهمها ما يلى :

١ — تفسير القرآن فى ثلاث مجلدات[2] قال عنه أبو سعد عبدالكريم ابن محمد السمعانى[3] حفيد أبى المظفر : صنف التفسير الحسن المليح الذى استحسنه كل من طالعه ـ وقال ابن العماد : وله تفسير جيد حسن .

(١) انظر الأنساب ٢٩٩/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ٣٣٨/٥

(٢) طبع هذا الكتاب بعنوان : « تفسير القرآن » بدار الوطن للنشر بالرياض فى ست مجلدات تحقيق / أبى تميم ياسر بن إبراهيم ؛ وأبى بلال غنيم بن عباس بن غنيم .

(٣) صاحب كتاب الأنساب .

٢ — الأحاديث الألف الحسان :

قال عنه أبو سعد ابن السمعانى : جمع « الأحاديث الألف الحسان » من مسموعاته عن مائة شيخ عن كل شيخ عشرة أحاديث .

٣ — منهاج أهل السنة .

٤ — الانتصار بالأثر .

٥ — الأمالى فى الحديث :

قال عنه أبو سعد بن السمعانى : وأملى المجالس فى الحديث وتكلم على كل حديث بكلام مفيد .

وقال الذهبى : وله الأمالى فى الحديث .

٦ — البرهان ؛ وهو فى الخلاف :

قال عنه أبو سعد ابن السمعانى : وهو مشتمل على قريب من ألف مسألة خلافية .

٧ — الأوسط ؛ وهو فى الخلاف أيضا .

٨ — الاصطلام :

قال عنه أبو سعد ابن السمعانى : المختصر الذى سار فى الآفاق والأقطار الملقب بـ « الاصطلام » ورد فيه على أبى زيد الدبوسى ؛ وأجاب على الأسرار التى جمعها .

٩ — الطبقات : قال ابن العماد : وله الطبقات أجاد فيه وأحسن .

١٠ — الرد على القدرية .

١١ — القواطع فى أصول الفقه .

قال عنه أبو سعد ابن السمعانى : وهو يغنى عما صنف فى ذلك الفن .

وقال السبكى : ولا أعرف فى أصول الفقه أحسن من كتاب « القواطع » ولا أجمع ، كما لا أعرف فيه أجل ولا أفخل من « برهان » إمام الحرمين ، فبينهما عموم وخصوص .

المحن التى واجهته :

ومن المحن التى واجهت أبى المظفر السمعانى ما كان بسبب انتقاله من المذهب الحنفى إلى المذهب الشافعى . حيث تفقه على والده فى فقه أبى حنيفة ، وصار من فحول النظر ، ومكث على ذلك ثلاثين سنة ، ثم بدا له بعد ذلك أن ينتقل إلى المذهب الشافعى ، وتردد فى أول الأمر ، وكان فى أثناء ذلك فى « مكة » مجاوراً بيت الله الحرام .

ويحدث السمعانى عن ذلك فيقول : كنت حنفياً . فلما اختلج فى ذهنى تقليد الشافعى . وزاد التردد عندى . وحججت . فلما بلغت سميراء[1] رأيت رب العزة جل جلاله فى المنام . فقال لى : عد إلينا يا أبا المظفر . فانتبهت وعلمت أنه يريد مذهب الشافعى . فرجعت إليه[2] وكان ذلك كما يقول أبو سعد ابن السمعانى : سنة اثنتين وستين وأربعمائة . وأخفى ذلك إلى أن وصل إلى مرو[3] .

وقال السبكى : وأظهر ذلك فى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

(١) منزل بطريق مكة بعد طوز مصعداً . وقبل الحاجز . راجع معجم البلدان ٣ / ٢٥٥ .

(٢) الطبقات للسبكى ٥ / ٣٣٨ . وسير أعلام النبلاء ١٩ / ١١٨ .

(٣) الأنساب ٣ / ٢٩٩ .

فاضطرب أهل « مرو » لذلك . وتشوش على العوام . وقالوا : طريقة ناظر عليها أكثر من ثلاثين سنة ثم تحول عنها ، وقامت الحرب على ساق . واضطربت بين الفريقين نيران فتنة كادت تملأ مابين خراسان والعراق . وفتح المخالفون للشافعية أبواباً . وتعلق أهل الرأى بأهل الحديث . وساروا إلى باب السلطان السير الحثيث . ولم يرجعوا إلى ذوى الرأى والنهى . ولا وقفوا عند مقالة من أمر ونهى . وعدلوا ماعدلوا . وحملوا حملة رجل واحد . وعن الصواب عدلوا . ورأموا إخفاء ضوء البدر . وقد برزت ضمائره ، وقصدوا كتم الصباح . والشيخ أبو المظفر ثابت على رجوعه غير ملتفت إلى محمول الكلام وموضوعه . مستقر على الإنتقال . مستمر على الارتحال . وهجره لذلك أخوه أبو القاسم . فزجره ولم يلو على لوم اللائم .

وخرج أبو المظفر من « مرو » وخرج معه طائفة من الفقهاء . وقصد نيسابور . فاستقبله الأصحاب — هناك — استقبالا عظيما . فأكرموا مورده . وعقدوا له التذكير فى مدرسة الشافعية . وظهر له القبول عند العام والخاص . واستحكم أمره فى مذهب الشافعى . ثم عاد إلى « مرو » بعد أن خمدت الفتنة . ودرس بها فى مدرسة أصحاب الشافعى . وعلا أمره . وظهر له الأصحاب[1] .

ومن المحن التى واجهت أبى المظفر السمعانى أيضاً أنه — كما يقول الذهبى — حج على البرية أيام انقطع الركب . فأخذ وجماعة . فصبر إلى أن خلصه الله تعالى من الأعراب . وحج وصحب الونجانى . وكان أبو المظفر يقول : أسرونا . فكنت أرعى جمالهم . فاتفق أن أميرهم

(١) طبقات الشافعية ٥ / ٣٤٢ .

أراد أن يزوج بلته ، فقالوا : تحتاج إلى أن نرحل إلى الحضر لأجل من يعقد لنا . فقال رجل منا : هذا الذى يرعى جمالكم فقيه خراسان ، فسألونى عن أشياء ، فأجبتهم ، وكلمتهم بالعربية ، فخجلوا واعتذروا ، فعقدت لهم العقد ، وقلت الخطبة ففرحوا ، وسألونى أن أقبل منهم شيئاً فامتنعت ، فحملونى إلى مكة وسط العام[2] .

ثناء العلماء عليه :

لقد أثنى كثير من العلماء على أبى المظفر السمعانى وعرفوا له قدره فى العلم والعمل ، حيث قال حفيده أبو سعد ابن السمعانى : « إمام عصره بلا مدافعة ، وعديم النظير فى فنه ، ولا أقدر على أن أصف بعض مناقبه ، ومن طالع تصانيفه . وأنصف ، عرف محله من العلم »[3] .

وقال عبد الغافر فى تاريخه : « هو وحيد عصره فى وقته ، فضلا وطريقة ، وزهداً وورعاً ، من بيت العلم والزهد ، تفقه بأبيه ، وصار من فحول أهل النظر ، وأخذ يطالع كتب الحديث ، وحج ورجع وترك طريقته التى ناظر عليها ثلاثين سنة ، وتحول شافعياً .

وقال إمام الحرمين : « لو كان الفقه ثوبا طاويا ، لكان أبو المظفر السمعانى طرازه » .

وقال أبو على الصفار : « إذا ناظرت أبا المظفر ، فكأنى أناظر رجلا من أئمة التابعين ، مما أرى عليه من آثار الصالحين »[4] .

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ١١٨ .
(٢) الأنساب ٣/٢٩٩ .
(٣) الطبقات للسبكى ٥ /٣٤٢ .

وقال الذهبي في السير: « الإمام العلامة، مفتي خراسان شيخ الشافعية، تعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة. وكان شوكا في أعين المخالفين، وحجة لأهل السنة »[1].

وقال السبكي: « هو الإمام الجليل. العالم الزاهد الورع. أحد أئمة الدنيا. أبو المظفر ابن الإمام أبي منصور بن السمعاني. الرفيع القدر. العظيم المحل. المشهور الذكر. أحد من طبق الأرض ذكره. وعبق الكون نشره »[2].

وفاته: وكانت وفاته في يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة. وعاش من العمر ثلاثا وستين سنة. رحمه الله رحمة واسعة[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ١١٤.

(٢) طبقات الشافعية ٥/٣٣٥.

(٣) مصادر الترجمة جميعها.

المبحث الثاني

منهج أبي المظفر السمعاني في التفسير

لقد أقام أبو المظفر السمعاني — رحمه الله تعالى — منهجه في التفسير على عدة أسس منهجية ليجمع في تفسيره بين المنهج النقلي الأثري، والمنهج العقلي التحليلي، وهي طريقة مثلى وفي غايه الأهمية للكشف عن مراد الله تعالى في كتابه، وكان من أهم هذه الأسس مايلي:

الأساس الأول

تفسير القرآن بالقرآن

لما كان القرآن الكريم قد اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص، وماأوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر، وما أجمل في موضع قد يبين في موضع آخر. وماجاء مطلقا في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى وما كان عاما في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى.

كان من الواجب على من يتعرض لتفسير القرآن الكريم أن ينظر في القرآن أولا فيجمع ماتكرر منه في موضع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض.

ومن هنا استخدم السمعاني — رحمه الله تعالى — القرآن الكريم كأساس أول في الرجوع إلى معاني بعض الآيات، ويفسر بعضها ببعض،

وهو مايعرف عند علماء التفسير بتفسير القرآن بالقرآن ، وهو أحد أنواع التفسير بالمأثور .

ومن أمثلة مافسر به السمعانى آيات القرآن بعضها ببعض ماجاء عند تفسير قوله تعالى: (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت)[1] حيث قال : يعنى من صوت العذاب حذر الموت . وقيل : الصاعقة : قطعة من العذاب ينزلها الله تعالى على من يشاء ، وعليه دل قوله تعالى : (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء)[2] .

ومن ذلك أيضا ماجاء عند تفسير قوله تعالى : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم)[3] حيث قال : يستيقنون : والظن يكون بمعنى الشك : ويكون بمعنى اليقين : قال تعالى : (إنى ظننت أنى ملاق حسابية)[4] أى استيقنت [5] .

ومن تفسير القرآن بالقرآن أيضا عند السمعانى ماجاء فى تفسير قوله تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك)[6] حيث قال : والخطاب وإن كان مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — فالمراد به الأمة ، وذلك معنى قوله تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)[7] .

---

(١) الآية ١٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٣ من سورة الرعد . وراجع تفسير القرآن للسمعانى ١/٥٤
(٣) الآية ٤٦ من سورة البقرة .
(٤) الآية ٢٠ من سورة الحاقة .
(٥) تفسير القرآن ١/٧٥ .
(٦) الآية ٧٩ من سورة النساء .
(٧) الآية ٣٠ سورة الشورى .

ومن ذلك أيضا ماجاء عند تفسير قوله تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)[1] . حيث قال السمعانى : « وهذا دليل على أن الله تعالى لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسل وهذا معنى قوله : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)[2] وقوله تعالى: (ولو أن أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى)[3] .

ومن خلال هذه الأمثلة يتضح لنا أن السمعانى — رحمه الله تعالى — كان يرجع فى تفسير بعض آيات القرآن إلى مايوضحها من كتاب الله تعالى . وإن كنا نلاحظ عليه أنه كان مقلا فى هذا الجانب إلى حد كبير مع أنه أعظم أنواع التفسير على الإطلاق .

الأساس الثانى

تفسير القرآن بالحديث النبوى الشريف

لقد استخدم السمعانى ثقافته الحديثية الواسعة فى تفسيره للقرآن حيث يذكر كثيراً من أحاديث الرسول — ﷺ — التى تدور حول شرح النص القرآنى وبيان مدلوله وتوضيح معناه .

والسمعانى حينما يفسر القرآن بما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم — لا يتقيد إلا فى القليل النادر بذكر الأسانيد التى عنى بها غيره

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٢) « ١٥ « « الإسراء .
(٣) « ١٣٤ « « طه .

من المفسرين بالمأثور ، كابن جرير الطبرى ، وابن أبى حاتم ، وابن كثير وغيرهم من المفسرين ، ولعله حذف الأسانيد اختصاراً وقصداً إلى عدم التطويل ، يضاف إلى ذلك أن السنة كان قد تم تدوينها فيما سبق من العصور .

ومن ثم لم يجد السمعانى حاجة إلى ذكر الأسانيد فى تفسيره فحذفها — فيما يبدو — اعتمادا على مصنفات الحديث وكتب الرواية والآثار .

ومن أمثلة ذلك ماجاء عند تفسير قوله تعالى : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) حيث قال السمعانى : « فالمغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى »[1] .

وروى عن عدى بن حاتم أنه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « يارسول الله من المغضوب عليهم ؟ فقال : اليهود . وقال : فمن الضالون؟ فقال النصارى .

قال عدى : أشهد أنى حنيف مسلم . قال عدى : فرأيت وجه رسول الله - ﷺ - يتهلل . ويبتسم فرحا بإسلامى »[2] .

---

(١) تفسير القرآن له ١/ ٣٩ .

(١) الحديث : أخرجه الترمذى فى سننه بنحوه مطولا فى تفسير سورة الفاتحة وقال : هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث سماك بن حرب .

راجع تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ٨/ ٢٣٠—٢٣٢ .

والإمام أحمد فى مسنده ٤ / ٢٧٨ — ٣٧٩ . وابن جرير فى تفسيره ١/ ٦١ . وابن أبى حاتم فى تفسيره ١/ ٢٣ رقم ٤٠ .

ومن ذلك أيضا ماجاء عند تفسير قوله تعالى : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخره)[1] حيث قال السمعانى : روى أبو وائل — وهو شقيق بن سلمة — عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ — أنه قال : « من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان » وتلاهذه الآية ، قال : وكان الأشعث بن قيس حاضراً ، فقال : فى نزلت الآية ، وذكر قصة ، وهذا حديث فى الصحيحين ، ورواه مسلم برواية أخرى ، وزاد فيه « أنه قيل : يارسول الله ، وإن كان فى شىء يسير ؟ قال : وإن كان فى قضيب من أراك »[2] .

وروى مسلم أيضاً فى كتابه برواية ثالثة عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « ثلاثة لايكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذبة »[3] .

ومن ذلك أيضا ماجاء عند تفسير قوله تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم)[4] .

---

(١) الآية ٧٧ من سورة آل عمران .

(٢) الحديث : أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ، وراجع فتح البارى ٨/ ٦٠ رقم ٤٥٤٩ ، ٤٥٥٠ ، ورواه مسلم من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ٢/ ٢٠٧ رقم ١٣٧ .

(٣) الحديث : أخرجه مسلم من حديث أبى ذر — رضى الله عنه — ٢/ ١٥٠ رقم ١٠٦ — وراجع التفسير للسمعانى ١/ ٣٣٣ .

(٤) الآية ٣١ من سورة النساء .

حيث قال السمعانى : « سئل رسول الله — ﷺ — فقيل له : أى الكبائر أكبر ؟ فقال : أن تدعو لله نداً وهو خلقك . قيل ثم أى ؟ قال أن تقتل ولدك مخافة أن يأكل معك . قيل . ثم أى؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك . ثم قرأ : (والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون)[1] :

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف ، وكان متكئا فاستوى جالساً وقال : وشهادة الزور ، وشهادة الزور فما زال يردده حتى قلنا : ليته سكت »[2] .

وبعد أن ذكر السمعانى هـذه الأحاديث ذكر رحمه الله تعالى ماورد من أقوال عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى شأن الكبائر حيث قال : وقال ابن مسعود : الكبائر : ماذكر الله تعالى فى هذه السورة إلى هذه الآية : (إن تجتنبوا) .

وعن ابن مسعود أيضا أنه قال : الكبائر أربعة : الإشراك بالله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله .

وقال ابن عباس : الكبائر سبع : الإشراك بالله ، وقتل النفس بغير نفس ، وقذف المحصنة ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والفرار من الزحف . والتعرب بعد الهجرة يعنى إلى دار الحرب .

---

(١) الحديث : أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ٨ / ٩ ، ومسلم فى كتاب الإيمان ١/٦٤ ، والآية ٦٨ من سورة الفرقان .

(٢) الحديث : أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ٨ / ٩ ، ومسلم فى كتاب الإيمان ١/٦٤٠ .

وقال ابن عمر : الكبائر تسع ، فذكر هـذه السبع وزاد شيئين . أحدهما : السحر . والثانى : الإلحاد فى الحرم بالميل والظلم .

وسئل ابن عباس : فقيل له : الكبائر سبع ؟ فقال : هى إلى السبعين أقرب منها إلى السبع . وقال المغيرة بن مقسم الضبى : شتم أبى بكر وعمر من الكبائر .

وبعد أن ذكر السمعانى هذه الأقوال فى تحديد المراد بالكبائر قال : وبالجملة أن الكبائر : كل جريمة أوعد الله تعالى عليها النار .

وقال أبو صالح : الكبائر كل ما أوجب الحد ، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار[1] .

وهكذا يستطرد السمعانى فى ذكر كثير من الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين عند تفسيره لبعض الآيات غير أننا نلاحظ عليه أنه يذكر عند تفسيره لبعض الآيات عدة أقوال فى تفسير الآية أحدها التفسير الوارد عن النبى ﷺ دون أن يقتصر عليه أو يرجحه .

ومن أمثلة ذلك ماجاء عند تفسير قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل »[2] حيث قال : « من قوة » فيه أقوال :

أحدها : ما روى عقبة بن عامر : « أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية على

---

(١) انظر تفسير القرآن ١ / ٤٢٠ .
وراجع هذه الأقوال أيضا فى تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ٢٤٠ - ٢٤٩ - طبعة دار الشعب .

(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

المنبر ثم قال : ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » أورده مسلم فى الصحيح[1] .

القول الثانى : وهو أن القوة : ذكور الخيل ، والرباط : إناثها . هذا قول عكرمة . وروى عن خالد بن الوليد أنه كان لا يركب فى القتال إلا الإناث لقلة صهيلها .

وعن أبى محيريز قال : كانوا يستحبون ركوب ذكور الخيل عند الصفوف وركوب إناث الخيل عند الثبات والغارات .

القول الثالث : أن القوة هى جميع الأسلحة . وقد قيل : إن القوة : الحصون . والحصون : الخيول[2] .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ماجاء عند تفسير قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »[3] حيث قال السمعانى : الإحسان هاهنا : الإسلام ، والحسنى : هو قول لا إله إلا الله . واختلفوا فى الحسنى وزيادة . فروى عن أبى بكر الصديق وأبى موسى الأشعرى ، وابن عباس ، وحذيفة ، وقتادة ، وجماعة من التابعين أنهم قالوا : الحسنى : هى الجنة ، والزيادة : هى النظر إلى الله عز وعلا .

---

(١) الحديث : أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة ، باب فضل الرمى والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه ٦ / ٥٤ .

وأبو داود فى سننه ، كتاب الجهاد ، باب فى الرمى ٣ / ١٤ رقم ٣٥١٤ ، وابن ماجه فى كتاب الجهاد ، باب الرمى فى سبيل الله ٢ / ٩٤٠ رقم ٢٨١٣ .

(٢) انظر تفسير القرآن ٢ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة يونس .

وروى أبو القاسم ابن بنت منيع عن هدبة بن خالد ، عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تعالى : يا أهل الجنة إن لكم عندى موعداً وأنا منجزكموه ، فقالوا : وما ذلك ؟ ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تثقل موازيننا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتخلصنا من النار ؟ قال : فيتجلى لهم فينظرون إلى وجهه ، فما أعطوا شيئاً هو أحب إليهم من النظر إليه ، ثم قرأ قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »[1] .

ولم يكتف السمعانى عند هذا الخبر الصحيح الذى أورده فى تفسير « الحسنى وزيادة » ، بل يقول : وفى الآية أقوال أخرى منها : ما روى عن على - رضى الله عنه - أنه قال : الزيادة : غرفة من اللؤلؤ لها أربعة آلاف باب .

وروى عن الحسن البصرى أنه قال : الحسنى : هى المثل من الثواب ، والزيادة : هى الزيادة على المثل إلى سبعمائة ضعف . وقال مجاهد : الحسنى : هى : المثل ، والزيادة : رضوان الله تعالى[2] . إلى غير ذلك من الأقوال[3] .

---

(١) الحديث : أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان . باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ١ / ١١٢ . والترمذى فى تفسير سورة يونس . راجع تحفة الأحوذى ٨ / ٤١٤ ، ٤١٥ رقم ٣٣٠٤ ، وابن ماجه فى المقدمة ١ / ٦٧ حديث رقم ١٨٧ . والإمام أحمد فى المسند ٤ / ٣٣٣ .

(٢) راجع تفسير القرآن ٢ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٣) راجع أيضا ٢ / ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤ / ٤٥٢ .

كما يلاحظ على السمعانى - رحمه الله تعالى - أنه لم يلتزم بمنهج معين فى ذكره للأحاديث، ولم ينتفع بقواعد المحدثين فى هذا المجال، فهو أحيانا يذكر الحديث ويشير إلى تخريجه، وأحيانا كثيرة لايشير إلى تخريج الحديث. ومن ناحية أخرى يذكر السمعانى بعض الأحاديث ويشير إلى درجة الحديث، كأن يقول: والخبر صحيح.

ومن ذلك ماذكره عند تفسير قوله تعالى: «وإن منها لما يهبط من خشية الله»[1]. فبعد أن ذكر المعنى للنص الكريم. قال السمعانى: فإن قيل: الحجر جماد لايفهم، فكيف يخشى؟ قلنا: قد قال أهل السنة إن لله تعالى علما فى الموات لايعلمه غيره. وقيل: إن الله تعالى يفهمهم ويلهمهم ذلك فيخشون بإلهامه، وبمثل هذا وردت الأخبار.

ومن تلك الأخبار التى ذكرها قال: وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «كان حجر يسلم على بمكة قبل أن أبعث، وأنا أعرفه الآن» ثم قال: والخبر صحيح[2].

وأحيانا أخرى يذكر السمعانى الحديث دون أن يشير إلى درجته، وإنما يرويه بصيغة التمريض بقوله: «روى عن رسول الله ﷺ» مع

---

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة.

(٢) الحديث: أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الفضائل. باب فضل نسب النبى ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة. انظر صحيح مسلم بشرح النووى ٧ / ٢٣٢ رقم ٥٨٢٩. والترمذى فى كتاب المناقب. باب ماجاء فى آيات نبوة النبى ﷺ وما قد خصه الله به. وقال: هذا حديث حسن غريب، انظر تحفة الأحوذى ١٠ / ٦٩.

أن الحديث صحيح، ومن ذلك ماجاء عند تفسير قوله تعالى: «فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه»[1].

قال السمعانى: «قال زيد بن أسلم: اختلفوا فى القبلة فهدانا الله إلى الكعبة، واختلفوا فى عيسى، فقال بعضهم: كذاب. وقال بعضهم: ابن الله فهدانا الله لكونه نبياً عبداً، واختلفوا فى إبراهيم، فادعاه كل فرقة فهدانا الله لكونه حنيفاً مسلماً.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون، وأول الناس دخولا الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا وأوتيناه من بعدهم، الناس لنا تبع فاليوم لنا - يعنى الجمعة - وغداً لليهود، وبعد غد للنصارى»[2].

وأحيانا أخرى يذكر السمعانى الحديث بدون صيغة التمريض مع أن الحديث شديد الضعف، ولم يبين حكم الحديث. مثال ذلك ماجاء عند تفسير قوله تعالى: «ويقتلون النبيين بغير حق»[3]، فبعد أن ذكر السمعانى ما فى كلمة «النبيين» من قراءات، وأنها تقرأ بالهمز واللين. قال: وفى الحديث: أن رجلا قال يانبىء الله - بالهمز والمد - فقال

---

(١) الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

(٢) الحديث: رواه البخارى فى كتاب الجمعة. باب فرض الجمعة، فتح البارى ٢ / ٤١٦ رقم ٨٧٦.

(٣) الآية ٦١ من سورة البقرة.

ﷺ : لست بنبيء الله إنما أنا نبي الله)[1] والحديث[2] .

ومن ذلك أيضا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « بقرة صفراء تسر الناظرين »[3] حيث قال السمعاني : أي تعجبهم وتدخل السرور في قلوبهم من حسنها ، وهذا دأب كل حسن قد يرى . وقد قال النبي ﷺ « من لبس نعلا صفراء لم يزل في سرور حتى ينزعها »[4] .

والحق أن هذا الحديث ضعيف بل موضوع حيث أخرجه العقيلي في الضعفاء[5] ، والطبراني في الكبير[6] ، وابن أبي حاتم في تفسيره جميعهم عن ابن عباس موقوفاً . وقال أبو حاتم في العلل : هذا حديث كذب موضوع[7] .

ومن ذلك أيضاً ماجاء عند تفسير قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . . . »[8] .

حيث قال السمعاني : وقد ورد في فضل هذه الآية من الأخبار ماروى عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن علي عن النبي ﷺ أنه قال : « فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، وآيتان من آل عمران -

---

(١) انظر : تفسير القرآن ١ / ٨٧ .

(٢) الحديث : أخرجه العقيلي في الضعفاء ٣ / ٨١ ، ٨٢ من حديث ابن عباس به مرفوعاً . وقد أورده في منكرات عبد الرحيم بن حماد الثقفي ، ثم قال : وقد روى بإسناد لين .

(٣) الآية ٦٩ من سورة البقرة .

(٤) تفسير القرآن ١ / ٩٢ .

(٥) ٣ / ٤٤٦ .

(٦) ١٠ / ٢٦٣ رقم ١٠٦١٢ .

(٧) ٢ / ٣١٩ .

(٨) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

شهد الله ، وهذه الآية - متشفعات لمن قرأها يوم القيامة ، ليس بينها وبين الله حجاب » . وروى في هذا الخبر : أنه قال : « لما أنزل الله تعالى هذه الآيات تعلقن بالعرش . وقلنا : يارب تهبطنا إلى أرضك وعبادك ، فقال الله تعالى : « وعزتي وجلالي ماقرأ كن عبد من عبادي إلا أسكنته جنتي على ما كان عليه ، وقضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة »[1] .

وهذا الحديث موضوع لا أصل له حيث رواه ابن الجوزي في الموضوعات[2] . وقال ابن حبان في ترجمة الحارث بن عمير كان يروى عن الأثبات الموضوعات ، ثم ساق هذا الحديث .

وقال الذهبي في الميزان[3] قال ابن حبان : موضوع لا أصل له .

وقال السيوطي في اللآلىء : موضوع[4] .

من خلال كل ماسبق أستطيع أن أقول : إن السمعاني - رحمه الله تعالى - في تفسير القرآن بماورد عن النبي ﷺ لم يلتزم بقواعد المحدثين وأصولهم في الرواية ، ولم يقتصر على ماصح عن النبي ﷺ ، وجمع في تفسيره بين الأحاديث الصحيحة وغيرها ، وغلب عليه مايغلب على عامة المفسرين من حشو كتبهم - أحيانا - بالأحاديث الضعيفة والموضوعة . وهذا المسلك الذي سلكه السمعاني في تفسيره أمر يجب أن يؤخذ عليه ، ويلتقد تفسيره بسببه ، وما أظنه نقل هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة إلا من كتب التفسير لامن كتب الحديث .

---

(١) تفسير القرآن ١/٣٠٧ . (٢) ١/٢٤٥ . (٣) ١/٤٢٠ .

(٤) ١/٢٢٨ وانظر مانقله السيوطي من كلام الأئمة على هذا الحديث وشواهد في اللآلى حتى ص ٢٣٣ .

الأساس الثالث

تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين

لقد كان السمعانى — رحمه الله تعالى — يرجع إلى القرآن والسنة فى تفسيره للقرآن ، فإذا لم يجد ما يفسر النص الكريم من هذين المصدرين رجع إلى أقوال الصحابة والتابعين ، وهو النوع الثالث من أنواع التفسير بالمأثور .

ولم يكن السمعانى بدعا فى ذلك ، ولكنه مسبوق بغيره من العلماء السابقين وأساتذته الذين خطوا المنهج وعبدوا الطريق ، وسار الرجل على نهجهم ، ولكن بشخصية حافظة مدققة أحيانا .

وكان من أبرز الصحابة الذين نقل السمعانى أقوالهم فى تفسيره : عبد الله ابن عباس ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله ابن عمر ، وكان على رأس التابعين الذين اهتم السمعانى بتلخيص أقوالهم وتوجيه آرائهم فى التفسير : الحسن بن أبى الحسن البصرى ، ومجاهد ابن جبر ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم ، وقتادة بن دعامة ، وعكرمة مولى ابن عباس ، والشعبى وغيرهم .

وقد سبق أن ذكرنا طرفا من هذه الأقوال قريبا أثناء الحديث عن تفسير القرآن بما ورد عن الرسول ﷺ ، ومن ذلك أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين »[1] حيث قال السمعانى : قال الحسن : الصفراء : السوداء .

---

(١) الآيه ٦٩ من سورة البقرة .

ومنه قول الشاعر :

تلك خيلى منه وتلك ركابى هن صفر ألوانها كالزبيب

يعنى سود .

ويعلق السمعانى على قول الحسن فيقول : والصحيح : أنه أراد به الصفراء المعهودة بدليل قوله : (فاقع لونها) ، وإنما يقال : أصفر فاقع ، وأسود حالك ، وأحمر قان ، وأبيض يقق ، ويقال ذلك للمبالغة .

وقال سعيد بن جبير : كانت صفراء القرون والظلف . قال السمعانى : والصحيح : أنها كانت صفراء بجميعها[1] .

ومن ذلك أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . . . »[2] حيث قال السمعانى قال ابن عباس : أشهد أن السلف المضمون المؤجل فى كتاب الله ، قد أنزل فيه أطول آية ، وتلا هذه الآيه .

وقوله : (فاكتبوه) قيل : هو على الوجوب ، وهو قول مجاهد .

وقال الشعبى : إنما يجب الكتب إذا وجد من يكتب ، والصحيح أنه على الندب . وقال أبو سعيد الخدرى : هذا الأمر منسوخ بقوله تعالى : « فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أوتمن أمانته »[3] .

ومن ذلك أيضا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « فتذكر

---

(١) تفسير القرآن ٩٢/١

(٢) الآيه ٢٨٢ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرآن ٢٨٣/١

إحداهما الأخرى » . قال السمعانى : وذلك بأن تقول : ألسنا حضرنا مجلس كذا ؟ ألم نسمع كيت وكيت ؟

وقال سفيان بن عيينة : فتذكر إحداهما الأخرى ، معناه : تجعل إحداهما الأخرى ذكراً ، أى يقومان مقام الذكر ، والأول أصح[1] .

وهكذا ينقل السمعانى من أقوال الصحابة والتابعين فى تفسير النص القرآنى ، ولكن لم يكن مجرد ناقل للأقوال فحسب ، وإنما ينقل بشخصية المفسر الواعى لما ينقل ، حيث ينقد بعض الأقوال ويعقب عليها باختصار شديد بقوله : والأولى كذا مدللا على ما يذكر فى بعض الأحيان .

الأساس الرابع

استخدام اللغة والنحو

لقد أقام السمعانى — رحمه الله تعالى — منهجه فى تفسيره على أساس من اللغة والنحو ، فجاء تفسيره قويا فى بابه ، رائعاً فى ميدانه محكماً فى بنيانه .

والواقع أن اللغة العربية وما تشتمل عليه من بيان لمعنى المفردات ، وإعراب للكلمات ، وتصريف للمشتقات ، تعتبر من أهم الأركان التى يعتمد عليها المفسر لكتاب الله تعالى ، لأن القرآن عربى ، ولابد فى تفسيره من الرجوع إلى اللغة العربية ، والاستعانة بها فى شرح ألفاظه

---

(١) المصدر السابق ٢٨٥/١

وإعراب كلماته ، ومعرفة مشتقاتها . أما التهجم على مقام القرآن الكريم ، واقتحام ميدان تفسيره من غير أن يتسلح الإنسان بسلاح اللغة ، فإن ذلك يترتب عليه آثار سيئة بعيدة المدى مثل الخطأ فى التأويل ، والإلحاد فى آيات التنزيل ، وتحريف الكلم عن مواضعه .

لذلك بين الرسول — ﷺ — أهمية اللغة العربية بالنسبة لدارس القرآن الكريم فقال : « اعربوا القرآن والتمسوا غرائبه »[1] والمراد بإعراب القرآن فى هذا الحديث — كما يقول الحافظ جلال الدين السيوطى — هو معرفة ألفاظه ، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة ؛ وهو ما يقبل اللحن ؛ لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها[2] .

ويقول الإمام مجاهد بن جبر — رحمه الله تعالى — : « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب »[3] .

لكل هذه الأمور يرى الإمام مالك — رحمه الله تعالى — أن من يقتحم ميدان التفسير لكتاب الله تعالى من غير أن يعد له عدته يجب أن يعاقب . فقد روى عنه أنه قال : « لا آتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالا »[4] .

ولقد أدرك السمعانى — رحمه الله تعالى — كل هذه النصوص

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ١٤٩/١

(٢ — ٤) البرهان فى علوم القرآن ٢٩٢/١ ، والإتقان فى علوم القرآن ٢٣١/٢

وغيرها . فجعل كتابه يشتمل على بعض المباحث اللغوية لبيان النص القرآنى . وذلك فيما يلى :

أولاً : الاشتقاق :

والاشتقاق : هو انتزاع كلمة من أخرى مغايرة لها فى الصيغة ومشابهة لها فى المعنى والأحرف الأصلية .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره السمعانى عند تفسير قوله تعالى : « ذرية بعضها من بعض »[1] . حيث قال : قيل : هو مشتق من ذرأ بمعنى خلق . وقيل : هو من الذر ، لأنه خلقهم واستخرجهم من صلب آدم كالذر . والأبناء يسمون ذرية . وكذلك الآباء . قال الله تعالى : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون »[2] يعنى آباءهم ، والأبناء ذرية لأنه ذرأهم . والآباء ذرية لأنه ذرأ الأبناء منهم[3] .

ثانياً : الصرف :

لما كان الصرف : هو عصمة اللسان من الخطأ فى القراءة . فقد اهتم به السمعانى إلى حد ما فى تفسيره . ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « وأوفوا بعهدى »[4] حيث قال — رحمه الله تعالى — : أوفى يوفى . ووفى يفى . بمعنى واحد . وقد جمعهما الشاعر فى بيت واحد فقال :

(١) الآيه ٣٤ من سورة آل عمران .
(٢) الآيه ٤١ من سورة يس .
(٣) تفسير القرآن ٣١٢/١
(٤) الآيه ٤٠ من سورة البقرة .

أما ابن عـــوف فقد أوفى بذمته
كما وفى بقـــلاص النجم حاويها[1]

ومن ذلك أيضا ماجاء عند تفسير قوله تعالى : (ولا تلبسوا الحق بالباطل)[2] ، حيث قال السمعانى : اللبس : هو الخلط والتعمية . يقال : لبس يلبَس لُبسا من اللباس . ولبَس يلبِس لَبسا من التلبيس . قال تعالى : (وللبسنا عليهم مايلبسون)[3] أى خلطنا عليهم كما خلطوا[4] .

ثالثاً : الإعراب :

وفى مجال النحو العربى نجد السمعانى لا يألوا جهدا فى ذكر بعض الوجوه الإعرابية فى الآية ، ويصحح أخطاء غيره من المفسرين ، ومن أمثلة ذلك ماجاء عند تفسير قوله تعالى : (وما أنزل على الملكين)[5] قرىء على النفى ، وهو محكى عن عطية بن عوف ، فعلى هذا فى الآية تقديم وتأخير تقديره : وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما يعلمان من أحد . وهذا قول غريب . والصحيح أن « ما » بمعنى « الذى » يعنى والذى أنزل على الملكين[6] .

(١) تفسير القرآن ١/ ٧١
(٢) الآية ٤٢ من سورة البقرة .
(٣) « ٩ « « الأنعام .
(٤) تفسير القرآن ١ / ٧٢
(٥) الآية ١٠٢ من سورة البقرة .
(٦) تفسير القرآن ١١٦/١

ومن ذلك أيضا ماذكره عند تفسير قوله تعالى : (لئلا يكون الناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا)[1] ، حيث قال السمعانى : وقيل : « إلا » بمعنى « ولا » أى ولا الذين ظلموا ، ومثله قول الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

والصحيح أنه استثناء منقطع ، و « إلا » بمعنى « لكن »[2] .

وأحيانا يذكر السمعانى الأقوال فى إعراب الكلمة دون أن يرجح بينها ، ومن ذلك ماذكره عند تفسير قولة تعالى : (والله بصير بالعباد . الذين يقولون)[3] حيث قال : فقوله : (الذين يقولون) يحتمل أن يكون فى موضع الخفض ، وتقديره : بالعباد الذين يقولون . ويحتمل أن يكون فى موضع الرفع ، وتقديره : يقولون على الابتداء . ويحتمل أن يكون فى موضع النصب ، وتقديره : أعنى الذين[4] .

ومن ذلك أيضا ماذكره عند تفسير قوله تعالى : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون)[5] حيث قال السمعانى : واختلفوا فى أن قوله : (كما أخرجك) إلى ماذا ترجع كاف التشبيه ؟ قال المبرد : تقديره : الأنفال لله والرسول وإن كرهوا ، كما أخرجك ربك من بيتك وإن كرهوا .

---

(١) الآيه ١٥٠ من سورة البقرة .
(٢) تفسير القرآن ٤٩٦/١
(٣) الآيتان ١٥ — ١٦ من سورة آل عمران .
(٤) تفسير القرآن ٣٠١/١
(٥) الآية ٥ من سورة الأنفال .

وقول الفراء قريب من هذا ، وهكذا قول الزجاج ، فإنهما قالا : تقديره : امض لأمر الله فى الأنفال ، وإن كرهوا كما مضيت لأمر الله عند إخراجك من بيتك وإن كرهوا .

وقيل : هو راجع إلى قوله تعالى : (فاتقوا الله) وتقديره : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق فاتبعت أمره فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم .

وقيل : هو راجع إلى قوله تعالى : (لهم درجات عند ربهم) وتقديره وعد الدرجات حق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، فأنجز الوعد بالنصر والظفر . وقال أبو عبيدة : « ما » هاهنا بمعنى « الذى » أى كالذى أخرجك ربك[1] .

ويستغل السمعانى ثقافته النحوية فى الرد على بعض الإشكالات النحوية الموجهة للقرآن الكريم . ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة)[2] .

حيث قال : (والمقيمين الصلاة) فى هذا اشكال من حيث النحو ، قيل : إن هذا ذكر لعائشة ، وأبان بن عثمان ، فادعيا الغلط على الكاتب وقالا : ينبغى أن يكتب : « والمقيمون الصلاة » وليس هكذا : بل هو صحيح فى النحو ، وهو نصب على المدح ، وتقديره : واذكروا المقيمين الصلاة ، أو أعنى المقيمين الصلاة ، وهم المؤتون الزكاة ، ومثله قول الشاعر :

---

(١) تفسير القرآن ٢٤٩/٢
(٢) الآية ١٦٢ من سورة النساء .

النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الأزر

أى : أعنى النازلين بكل معترك ، وهم الطيبون معاقد الأزر ، فيكون نصبا على المدح . وقيل : تقديره : وما أنزل على المقيمين الصلاة[1] .

رابعاً : البلاغة :

لقد تعرض السمعانى — رحمه الله تعالى — فى تفسيره لبعض الصور البلاغية والأسرار البيانية ، ولكنه لم يتوسع فيها كما فعل من جاء بعده من المفسرين كالزمخشرى فى تفسيره « الكشاف » وأبى السعود فى تفسيره « إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم » .

ومن أمثلة ماجاء فى تفسير السمعانى من الحديث عن البلاغة ، حديثه عن التشبيه عند تفسير قوله تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم)[2] حيث قال : فإن قال قائل : الكاف للتشبيه فأين المشبه به ؟ قلنا : قال على ـ رضى الله تعالى عنه ـ تقديره : فاذكره لى كما أرسلنا فيكم رسولا . فيكون الذكر على هذا القول بمعنى الشكر . وقيل : تقديره : ولأتم نعمتى عليكم كما أرسلنا فيكم رسولا منكم[3] .

ومن أمثلة حديثه عن البلاغة إشارته إلى المجاز فى قوله تعالى :

(١) تفسير القرآن ١ / ٥٠١ . وراجع فى ذلك أيضا ماذكره فى : ٢/٩٨ ، ٣٨١ ، ٣/١٨١

(٢) الآية ١٥١ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرآن ١/١٥٤ ، ١٥٥

(كل نفس ذائقة الموت)[1] . حيث قال : والذوق فى الموت مجاز . وحقيقة الذوق : هو الإحساس بالشىء ، فلما كان يحس بالموت سماه ذوقا مجازا[2] .

ومن أمثلة حديثه عن المجاز أيضاً ماجاء عند تفسير قوله تعالى : (ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن)[3] حيث قال : معناه يفنين ويهلكن ماقدمتم لهن ، وهذا على طريق التوسع والمجاز . فإن السنين لا تأكل شيئاً ، وإن القوم فى السنين يأكلون[4] .

خامساً : الشعر :

ومن الأساليب اللغوية التى استخدمها السمعانى فى بيان المعانى القرآنية والاستدلال عليها الشعر العربى ، لأنه كان يعلم أن الشعر ديوان العرب ، الذى قال عنه ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب . وروى عنه أيضاً أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر ، أى كان يستشهد به على التفسير[5] .

لذلك كان السمعانى — رحمه الله تعالى — يكثر من الشواهد

(١) الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

(٢) تفسير القرآن ١/٣٨٦

(٣) الآية ٤٨ من سورة يوسف .

(٤) تفسير القرآن ٣/٣٧

(٥) الاتقان فى علوم القرآن ١/١٥٧

الشعرية على معانى المفردات القرآنية ، ومن أمثلة ذلك ماجاء عند تفسير قوله تعالى : (فيهما إثم كبير ومنافع للناس)[١] . حيث قال : ولفظ الإثم يدل على التحريم ، فإنه حرم الخمر بلفظ الإثم فى آية أخرى ، حيث قال تعالى : (قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم ..)[١] ،

وأراد به الخمر ، ومنه قول الشاعر :

شربت الإثم حتى ضل عقلى
كذاك الإثم يذهب بالعقول[٢]

ومن ذلك أيضا ماجاء عند تفسير قوله تعالى : (كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولا ذمة)[٣] . حيث قال السمعانى — بعد أن ذكر عدة أقوال فى المراد بـ « الإل » : والثالث : قول الضحاك — وهو أولى الأقاويل وأحسنها — قال : إن الإل : هو القرابه ، والذمة : العهد ، قال حسان بن ثابت :

لعمرك إن إلك من قريش
كإل السقب من رأل النعام[٥]

(١) الآية ٢١٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .
(٣) تفسير القرآن ٢١٨/١ ، ١٧٨/٢
(٤) الآية ٨ من سورة التوبة .
(٥) تفسير القرآن ٢٩٠/٢

الأساس الخامس

القراءات

لقد كان لعلم السمعانى بالقراءات أثر بالغ الأهمية فى تفسيره حيث أوقفنا على كم هائل من القراءات المختلفة التى يرتبط بها معنى الآية فيتغير بتغيرها ، أو يتعلق بها اختلاف الآراء فى الإعراب .

ولقد جمعت معظم القراءات التى ذكرها السمعانى فى تفسيره ونسقتها فى جداول طويلة حتى يتسنى لى دراستها والوقوف على منهج السمعانى فيها ، وخرجت من ذلك بما يلى :

أولا : أن السمعانى يكرر شواهده فى القراءات كثيراً اعتماداً على طريقة التأليف فى عصره ، بحيث لا يترك قراءة فى النص القرآنى دون أن يذكرها مع ذكر السند أحيانا ، أو عدم ذكره فى كثير من الأحيان .

ثانياً : الحكم على القراءة فى بعض الأحيان بالشذوذ ، أو عدم الحكم عليها فى كثير من الأحيان .

ثالثاً : توجيه بعض القراءات التى يذكرها ، أو عدم توجيهها .

رابعاً : بيان موقف بعض النحاة من بعض القراءات المتواترة غير أنه لم يبين موقفه من ذلك . وسوف أذكر بعض الأمثلة التى تبين ما ذهبنا إليه من هذه الملاحظات العامة على منهج السمعانى فى القراءات وذلك فيما يلى :

أولا : فى مجال الإسناد :

لما كان لذكر الإسناد فى القراءات أهمية كبرى فى بيان حكمها من حيث التواتر وعدمه ، كان السمعانى يورد فى كثير من الأحيان القراءة مسندة ، ومثال ذلك : ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « قل فيهما إثم كبير »(١) ، حيث قال : قرأ حمزة والكسائى بالثاء ، وقرأ الباقون « كبير » بالباء(٢) . فالكبير : بمعنى العظيم ، والكثير لكثرة عدد الآثام فى الخمر التى ذكرها فى آية المائدة : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء »(٣) .

ومن ذلك أيضا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا » حيث قال : يقرأ : « إليكم السلام »(٤) ويقرأ : « إليكم السلم »(٥) . . . وقرأ أبو جعفر المدنى يزيد بن القعقاع : « لست مؤمنا » من الأمان(٦) .

ومن ذلك أيضا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « وقالوا قلوبنا

(١) الآية ٢١٩ من سورة البقرة .
(٢) انظر النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ٢٢٧/٢
(٣) الآية ٩١ من سورة المائدة .
(٤) وهى قراءة : ابن كثير ، وأبى عمرو ، والكسائى ، وعاصم ، انظر السبعة لابن مجاهد ص ٢٣٦ والنشر لابن الجزرى ٢٥١/٢
(٥) وهى قراءة : نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، وأبى جعفر ، وخلف . اتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر ص ١٩٣
(٦) تفسير القرآن ٦٥/١

غلف » حيث قال : قرأ ابن عباس : « غلف » بضم اللام ، وهى قراءة الأعرج وابن محيصن ، وهى من الشواذ . والقراءة المعهودة بجزم اللام(١) .

ثانياً : فى مجال الحكم على القراءة :

فى كثير من الأحيان يحكم السمعانى على القراءة بأنها شاذة مع ذكر من قرأ بها كما فى المثال السابق ، ومن أمثلة ذلك أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة »(٢) حيث قال : قرأ أبى بن كعب : « ثم عرضها » وهى فى الشواذ(٣) .

وأحيانا يكتفى السمعانى — رحمه الله تعالى — بذكر سند القراءة دون الحكم عليها ، ومن أمثلة ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون »(٤) حيث قال : وقرأ الحسن البصرى ، وعاصم الجحدرى : « وإله أبيك » كأنه على هذه القراءة لم يجعل العم والجد أباً(٥) .

ومن ذلك أيضا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « وإن كان

(١) تفسير القرآن ١٠٦/١ ، ١٠٧ ، والآية ٨٨ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٣١ من سورة البقرة .
(٣) تفسير القرآن ٦٥/١
(٤) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .
(٥) تفسير القرآن ١٤٣/١

ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، حيث قال : قرأ أبي بن كعب : (وإن كان من عليه الدين ذا عسرة) . وقرأ عطاء : (فنظرة إلى ميسرة) والمعروف (وإن كان ذو عسرة)[1] .

وأحيانا أخرى يشير السمعانى إلى أن القراءة شاذة دون أن يذكر من قرأ بها ، ومن أمثلة ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما[2] حيث قال ، ويقرأ فى الشواذ : « قال رجلان من الذين يخافون » — بضم الياء — فيكون معناه : رجلان من أولئك العمالقة[3] .

ثالثاً : فى مجال التوجيه :

لقد كان السمعانى — رحمه الله تعالى — فى كثير من الأحيان يقوم بتوجيه القراءة بما يزيل الغموض عنها سواء من ناحية المعنى ، أو من ناحية اللغة ، ومن أمثلة ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ... »[4] حيث قال : نافع : « ولولا دفاع الله » والمعنى واحد . قال ابن عباس ومجاهد : معناه : لولا دفع الله الكفار بالمؤمنين لكثر الكفر ، ونزلت السخطة ، واستؤصلت الأرض[5] .

« تفسير القرآن ٢٨١/١

(٢) الآية ٢٣ من سورة المائدة .

(٣) تفسير القرآن ٧٢/٢

(٤) الآية ٢٥١ من سورة البقرة .

(٥) تفسير القرآن ٢٥٤/١

ومن ذلك أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك .. »[1] حيث قال : وقوله تعالى : « فصرهن إليك » أى فضمهن إليك . وقرأ حمزة بكسر الصاد[2] وفيه تقديم وتأخير ، وتقديره : فخذ أربعة من الطير إليك فصرهن ، أى فقطعهن[3] .

ويلاحظ على السمعانى اهتمامه بالمعنى أولا وقبل كل شىء ، لذا فهو يورد القراءات كلها دون أن يفرق بين المتواتر والشاذ ، ويقوم فى كثير من الأحيان بتوجيه القراءة الشاذة ؛ ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون »[4] ، حيث قال : وقرأ الحسن البصرى ، وعاصم الجحدرى : « وإله أبيك » كأنه على هذه القراءة لم يجعل العم ولا الجد أبا . والقراءة المعروفة — يقصد المتواترة — « وإله آبائك » فجعل الجد والعم آباء[5] .

رابعاً : فى مجال الدفاع عن القراءات المتواترة :

لقد كان السمعانى — رحمه الله تعالى — يورد موقف النحاة من بعض القراءات المتواترة غير أنه لم يبين لنا موقفه من ذلك ، ومن أمثلة

(١) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٢) وهى قراءة أبى جعفر ، وخلف ، ورويس انظر النشر ٢٣٢/٢

(٣) تفسير ٢٦٧/١

(٤) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

(٥) تفسير القرآن ١٤٣/١

ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « إن تبدوا الصدقات فنعما هي . . »[1] حيث قال : يقرأ بالقراءات بفتح النون ، وكسر العين ، ويقرأ بكسرهما ، وقرأ أبو عمرو : بكسر النون وجزم العين ، ولم يرض ذلك منه نحاة البصرة ، وقالوا فيه التقاء الساكنين ، واستشهد أبو عمرو بقوله ﷺ لعمرو بن العاص : « نعم المال الصالح للرجل الصالح »[2] ، والكل في المعنى سواء[3] .

ومن ذلك أيضاً ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام »[4] حيث قال : وقرأ حمزة « والأرحام » بكسر الميم ، وتقديره : تساءلون به وبالأرحام . . . وضعفوا هذه القراءة . والقراءة المعروفة : بنصب الميم[5] .

وبدلا من أن يقتصر السمعاني لهذه القراءة المتواترة ، ويرد على أولئك النحاة يكتفي بقوله : والقراءة المعروفة بنصب الميم ، وكأن هذه القراءة غير معروفة وغير متواترة .

---

(١) الآية ٢٧١ من سورة البقرة .

(٢) الحديث : رواه الإمام أحمد في المسند ٤ / ١٩٧ - ٢٠٢ وقال محققوا المسند : إسناده صحيح على شرط مسلم انظر الموسوعة الحديثية ٢٩ / ٢٩٩ . ورواه البخاري في الأدب المفرد ص ٩٠ - ٩١ ، والحاكم في المستدرك ٢ / ٢ - ٢٣٦ وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي في التلخيص .

(٣) تفسير القرآن ١ / ٢٧٤ .

(٤) أول سورة النساء .

(٥) تفسير القرآن ١ / ٣٩٤ .

ونقول : الرافضون لهذه القراءة المتواترة من النحاة والمفسرين كثيرون ، ولكن أقوالهم في رد هذه القراءة ، ورد معناها ظاهر البطلان ، لأن هذه القراءة سبعية ثابتة عن إمام من أئمة القراءة .

وقد أجمعت الأمة على قبولها وقبول معناها ، وأن العمدة في قبول هذه القراءة أوردها : هو الرواية ، لا العلل النحوية والقياسات اللغوية ، لأن أئمة القراء لا يعملون في حروف القرآن - كما يقول الداني - على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل ، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها[1] .

فالرواية هي الأصل ، وقواعد العربية تبع لها ، لا العكس ، والقرآن حكم على قواعد اللغة لا العكس .

وبعد هذه الدراسة الموجزة لمنهج السمعاني في القراءات يمكن أن نلخص منهجه فيما يلي :

أولا : أن السمعاني يكرر شواهده في القراءات كثيراً ، بحيث لا يترك قراءة دون أن يذكرها مع ذكر سندها أحياناً أو عدم ذكره في أحيان أخرى .

ثانياً : الحكم على القراءة بالشذوذ في بعض الأحيان ، وفي كثير من الأحيان يذكر السمعاني القراءة الشاذة دون أن يحكم عليها .

ثالثاً : توجيه بعض القراءات بإيجاز شديد ودون استطراد .

---

(١) راجع النشر في القراءات العشر ١ / ١٠ - ١١ .

الأساس السادس

مسلكه فى عرض الأحكام الفقهية

كان السمعانى — رحمه الله تعالى — إماما من أئمة الشافعية ، وفقيها من أعظم فقهائهم . وقد عده السبكى فى طبقاته من أعيان المذهب الشافعى .

وقال عنه إمام الحرمين : « لو كان الفقه ثوبا طاويا لكان أبو المظفر السمعانى طرازه »[1] .

وقال عنه الذهبى : والإمام العلامة مفتى خراسان . شيخ الشافعية . تعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة . وكان شوكا فى أعين المخالفين . وحجة لأهل السنة »[2] .

لذلك فإننا نجد السمعانى يشير إلى مذهب الشافعى وغيره من الفقهاء فى أثناء حديثه عن بعض الأحكام الفقهية . ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم — إلى قوله — فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر . . »[3] .

حيث نقل أقوال الفقهاء فى حكم صيام المسافر والمريض ، وبيان

(١) راجع ما ذكره السبكى فى طبقاته ٥ / ٣٣٥ - ٣٤٦ .
(٢) راجع ما ذكره الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء ١٩ / ١١٤ - ١١٩ .
(٣) الآيتان ١٨٣ - ١٨٤ من سورة البقرة .

المرض الذى يبيح به الفطر فقال : قال داود وأهل الظاهر : يجب على المسافر صوم عدة من أيام أخر ، وإن صام رمضان قولا بظاهر الآية .

والجمهور على أن فيه إضمارا وتقديره : فأفطر فعدة من أيام أخر ، ثم اختلفوا فى حد المرض الذى يبيح الفطر ، فقال داود وأهل الظاهر : ما ينطلق عليه اسم المرض ، وهو قول ابن سيرين من السلف ، وقال الحسن : هو المرض الذى يجوز معه الصلاة قاعدا .

ومذهب الشافعى : هو المرض الذى يخاف من الصوم معه الزيادة فى المرض .

فأما السفر الذى يبيح الفطر اختلفوا فيه ، فقال داود ومن تابعه : هو ما ينطلق عليه اسم السفر ، ومذهب الشافعى : أنه مسافة القصر ، ستة عشر فرسخا ، ومذهب أبى حنيفة — رضى الله عنه — أنه مسيرة ثلاثة أيام كما قال فى القصر[1] .

وإذا كان السمعانى فى هذا المثال قد ذكر أقوال بعض الفقهاء ولم يرجح قولا على آخر ، إلا أننا نجده فى كثير من الأحيان ينقل الأقوال فى الحكم الفقهى المتعلق بالنص القرآنى مع الترجيح لما يذكر ، ومن أمثلة ماذكره عند تفسير قوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه »[2] .

حيث قال : قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : معناه فمن كان منكم مقيما فى الحضر فأدرك الشهر فليصمه ـ ثم اختلفت الصحابة فيمن أدرك الشهر وهو مقيم ، ثم سافر على قولين :

(١) تفسير القرآن ١/١٧٩ ، ١٨٠
(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

فقال على — رضى الله عنه — لايجوز له أن يفطر ، وأكثر الصحابة يجوز الفطر ، وهو الأصح ، لما صح عن رسول الله ﷺ برواية جابر « أنه سافر فى رمضان فلما بلغ كراع الغميم أفطر وأفطر الناس »[1] .

ومن ذلك أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبا .. »[2] حيث قال : (أو لمستم النساء) ويقرأ : (أولامستم النساء)[3] قال على وابن عباس : أراد به الجماع ، قال ابن عباس : إن الله حيي كريم يكنى بالحسن عن القبيح ، فكنى باللمس عن الجماع .

وقال ابن مسعود وابن عمر : هو اللمس باليد ، وهو قول الشافعى ، فمن قال بالأول قال : إن التيمم للجنب ثابت بنص الكتاب ، ومن قال بالثانى قال : إن التيمم المحدث ثابت بالكتاب ، وللجنب ثابت بالسنة .

وقال ابن عمر وابن مسعود : ليس للجنب أن يتيمم أصلا ، وحملوا الآية على اللمس باليد ، وتمسكوا بظاهر الآية ، والأصح : أن اللمس والملامسة واحد .

---

(١) تفسير القرآن ١/١٨٣ ، ١٨٤ والحديث : رواه مسلم ٧/٣٢٨ رقم ١١١٤ ، والترمذى ٣/٨٩ رقم ٧١٠ ، والنسائى ٤/١٧٧ رقم ٢٢٦٣

(٢) الآية ٤٣ من سورة النساء .

(٣) فقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر بالألف ، وقرأ حمزة والكسائى بغير ألف .

انظر السبعة لابن مجاهد ص ٢٣٤

وقال بعضهم : من قرأ (أو لامستم) ففيه دليل على انتقاض طهارة اللامس والملموس جميعاً ، ومن قرأ : (أولمستم) ففيه دلالة على انتقاض طهارة اللامس فحسب[1] .

ومن ذلك أيضا ما ذكره فى مسألة الصلح بين الزوجين عند تفسير قوله تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما »[2] حيث طرح السمعانى سؤالا وأجاب عليه بقوله : وهل يجوز للحكمين التفريق ؟

ثم أجاب فقال : للسلف فيه قولان :

أحدهما : أنه يجوز التفريق كما يجوز الجمع من غير رضا الزوج ، وروى عن على أنه بعث الحكمين ، فقال الزوج : أما الفرقة فلا ، فقال على : لاحتى ترضى بكتاب الله تعالى ، فعلى هذا معنى قوله : (يوفق الله بينهما) يعنى يوفق الله بين الحكمين بما فيه الصلاح من الفرقة أو الجمع ، والصحيح — وعليه الفتوى — أنه لايجوز التفريق ، وهو ظاهر الآية[3] .

قلت : وما ذهب إليه السمعانى من عدم التفريق هو أحد قولى الشافعى ، ومذهب أبى حنيفة لايجوز التفريق إلا برضا الزوج[4] .

ولما كان تفسير السمعانى ليس الغرض منه استنباط الأحكام

---

(١) تفسير القرآن ١/٤٣٠ ، ٤٣١

(٢) الآية ٣٥ من سورة النساء .

(٣) تفسير القرآن ١/٤٢٥

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ١٧٤٦ ، ١٧٤٧

الفقهية كما هو الشأن فى كتب الأحكام نجده ـ رحمه الله تعالى ـ لا يسرف فى ذكر الأحكام الفقهية ، ولا يشغل نفسه كثيراً بالانتصار لمذهب الشافعى الذى هو عليه ، والرد على المذاهب الأخرى كما هو منهج الكتب التى ألفت فى هذا المجال ، وإن كان فى بعض الأحيان يتطرق إلى أدلة بعض الأحكام ، ومن ثم يرجح من آراء الفقهاء ما يرجح ، ويرد منها ما يرد .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : (ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله)[1] حيث قال : أى يذبح فى موضعه ، وموضع الذبح عندنا : حيث أحصر وتحلل .

وقال أبو حنيفة : موضعه : مكة . وما قلناه أصح ، لأن رسول الله — ﷺ — لما بلغ الحديبية معتمرا ، فصده المشركون . تحلل وذبح هنالك[2] .

ومن ذلك أيضاً ما جاء فى تفسير قوله تعالى : (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره)[3] حيث قال : هو الطلقة الثالثة . وحكمها التحريم إلى أن يوجد الزوج الثانى . ثم التحليل للزوج الأول إنما يحصل بالعقد والوطء جميعا ، على قول أكثر العلماء .

وحكى عن سعيد بن المسيب — وقيل : عن سعيد بن جبير — أنه يحصل بمجرد النكاح — يقصد العقد — بظاهر الآية . وقد عد هذا من شواذ الخلاف .

---

(١) الآية ١٩٦ من سورة البقرة .

(٢) تفسير ١/١٩٧ وراجع فى ذلك فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٤/٦،٧ حديث رقم ١٨٠٧

(٣) الآية ٢٢٩ من سورة النساء .

والدليل على صحة القول الأول : ماروى « أن امرأة رفاعة القرظى جاءت إلى رسول الله ﷺ : وقالت : إن رفاعة بت طلاقى . وتزوجت بعبد الرحمن بن الزبير . وإنما معه مثل هدبة الثوب . فقال عليه السلام : أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟ لا ، حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك »[1] فدلت السنة على اشتراط الوطء وهذا خبر صحيح[2] .

والسمعانى — وهو يعرض للمذاهب الفقهية فى تفسيره — لا يرتضى مذهب داود الظاهرى ، ولعله كان يرد على ابن حزم الذى عاش فى عصره وذلك بإيراده مذهب الجمهور فى المسألة والتدليل عليه ، ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا)[3] . حيث قال : قصر الصلاة فى السفر لا خلاف فى جوازه فى حال الخوف ، وأما فى حالة الأمن : قال سعد بن أبى وقاص : إنه لا يجوز ، وبه قال داود وأهل الظاهر ، تمسكاً بظاهر القرآن .

وقال جمهور العلماء — وهو قول أكثر الأمة : — إنه يجوز القصر فى حالة الأمن ، لما روى عن يعلى بن أمية أنه قال لعمر ـ رضى الله عنه ـ « مالنا نقصر ، وقد أمنا . والله تعالى يقول فى كتابه : (أن تقصروا من الصلاة إن خفتم) ؟ قال عمر : عجبت مما تعجبت أنت . فسألت النبى

---

(١) الحديث : أخرجه البخارى فى كتاب الطلاق ، باب إذا طلقها ثلاثاً الخ برقم ٥٣١٧ انظر فتح البارى ٩/٣٧٤ .

(٢) تفسير القرآن ١/ ٢٣٣

(٣) الآية ١٠١ من سورة النساء .

ﷺ : فقال : صدقة تصدق الله بها عليكم . فاقبلوا صدقته »[1] وروى أن رسول الله ﷺ سافر من مكة إلى المدينة - لايخاف إلا الله - وقصر الصلاة[2] وكان عليه السلام يقصر الصلاة فى جميع أسفاره ، ولم ينقل أنه أتم فى سفر ما . ولذلك قال الشافعى : القصر أولى ، وإن جاز الإتمام[3] .

هذا هو مسلك السمعانى - رحمه الله تعالى - فى عرض الأحكام الفقهية . مسلك يقوم على التحرر فى الرأى والدقة فى النقل . والسير مع الدليل . ويعتمد كذلك على عدم التعصب لمذهبه ، وعدم الإسراف فى ذكر المسائل الفقهية فى تفسيره ، ولعل السمعانى حين كان يذكر الأقوال الفقهية المختلفة فى تفسير الآية ، كان يشير بذلك إلى أن الآية محتملة لجميع هذه الأقوال . وأنها لاتشهد لقول دون قول ، وموقف السمعانى — هذا — مناسب تماماً لطبيعة عمله كمفسر لا كفقيه ، والله تعالى أعلم .

---

(١) الحديث : أخرجه مسلم فى كتاب الصلاة : باب صلاة المسافرين وقصرها راجع صحيح مسلم بشرح النووى ٣/ ٤ رقم ١٤٤٥ ، وأبو داود فى الصلاة ، باب صلاة المسافر ٢/ ٣ رقم ١١٩٩ والترمذى فى تفسير سورة النساء ٥ / ٢٤٣ رقم ٣٠٣٤ ، والنسائى فى كتاب الصلاة ، باب تقصير الصلاة فى السفر ١١٦/٣

(٢) الحديث : رواه الترمذى فى أبواب السفر وقال : هذا حديث صحيح . راجع تحفة الأحوذى ٣/ ٨٩ رقم ٥٤٥ ، والنسائى فى كتاب الصلاة ١١٧/٣ ، ١١٨ . والإمام أحمد فى المسند ٢١٥/١

(٣) تفسير القرآن ٤٧١/١

الأساس السابع

حيطته فى الأخذ بالإسرائيليات

والإسرائيليات - عند علماء الإسلام - تطلق على القصص والأساطير التى تنسب إلى أصل يهودى أو نصرانى . وأكثر هذا القصص والأساطير يتعلق بما جرى للأولين ، وماحدث للأنبياء والمرسلين .

وهذه الإسرائيليات — فى الغالب — لاتخلو من تناقض وتهافت وكذب وبهتان ، لأنها مستمدة من التوراة والإنجيل وهما قد أصابهما التحريف والتبديل .

والواقع أن تسرب هذه الإسرائيليات إلى كتب التفسير مسبوق بتسرب الثقافة اليهودية والنصرانية إلى الثقافة العربية قبل الإسلام . فقد كان للعرب فى جاهليتهم رحلات مختلفة يرحلونها مشرقين ومغربين . وكانت لقريش - كما يحدثنا القرآن - رحلتان : رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام . وفى اليمن والشام كثير من أهل الكتاب - اليهود والنصارى - وبدهى أنه كانت تتم بين العرب وأهل الكتاب لقاءات . ولاشك أن هذه اللقاءات عامل قوى من عوامل تسرب الثقافة الإسرائيلية إلى العرب .

فلما جاء الإسلام وكان القرآن الكريم يحتوى على كثير من الموضوعات التى تحتوى عليها التوراة والإنجيل خصوصاً مايتعلق بقصص الأنبياء مع فارق واحد هو الإيجاز فى القرآن والبسط والإطناب فى التوراة والإنجيل .

يضاف إلى ذلك أنه كان هناك طائفة من أهل الكتاب قد دخلوا فى

الإسلام مثل : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وغير هؤلاء ممن كانت لهم ثقافات يهودية واسعة ، فكان الصحابى إذا مر على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلا إلى أن يسأل عن بعض ماطواه القرآن منها . ولم يتعرض له ، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا فى الإسلام وحملوا إلى أهله مامعهم من ثقافة ، فألقوا إليهم ما ألقوا من الأخبار والقصص الدينى .

غير أن الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شىء ، ولم يقبلوا منهم أى شىء ، بل كانوا يسألون عن أشياء لاتعدوا أن تكون توضيحاً للقصة . وبياناً لما أجمله القرآن منها . مع توقفهم فيما يلقى إليهم ، فلا يحكمون عليه بصدق أو بكذب مادام يحتمل كلا الأمرين امتثالا لقول الرسول - ﷺ - « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله ومانزل إلينا »[1] .

كما أن الصحابة لم يسألوا عن شىء فيما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام اللهم إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن ، كذلك كانوا لا يعدلون عما ثبت عن الرسول ﷺ من ذلك إلى سؤال أهل الكتاب ، لأنه إذا ثبت الشىء عن الرسول ﷺ . فليس لهم أن يعدلوا عنه إلى غيره .

كما كانوا لا يسألون عن الأشياء التى يشبه أن يكون السؤال عنها من

---

(١) الحديث : أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ، باب قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا : راجع فتح البارى ٨ / ٢٠ رقم ٤٤٨٥ والآية ١٣٦ من سورة البقرة .

قبيل اللهو والعبث . كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف ، والبعض الذى ضرب به القتيل من البقرة . ومقدار سفينة نوح . ونوع خشبها ، واسم الغلام الذى قتله الخضر : وغير ذلك ، ولهذا قال الدهلوى — بعد أن بين أن السؤال عن مثل هذا تكلف مالا يعنى — وكانت الصحابة رضى الله عنهم يعدون مثل ذلك قبيحا من قبيل تضييع الأوقات[1] .

أما التابعون فقد توسعوا فى الأخذ عن أهل الكتاب ، وكثرت الإسرائيليات فى التفسير ، وذلك راجع إلى كثرة الداخلين فى الإسلام من أهل الكتاب ، وشدة ميل التابعين إلى سماع تفاصيل القصص والأحداث التى أجملها القرآن .

ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات . وأفرط بالأخذ منها . حتى وصلوا إلى درجة أصبحوا معها لا يردون قولا ولو كان بما لا يقبله العقل أو يتنافى مع صريح النقل . فلما جاء عصر تدوين التفسير ملئت مصنفاته بالخرفات الإسرائيلية التى كانت سببا فى عدم الثقة بكل مافى هذه الكتب ، وإيجاد ثغرة نفذ منها من أراد الطعن فى الإسلام .

وبعد أن عرفت كيف تسللت الإسرائيليات إلى كتب التفسير . فنقول: المفسرون - بالنسبة للإسرائيليات على وجه العموم فريقان : فريق أكثر من الإسرائيليات ، وفريق آخر قلل من روايتها ، فمن الذين أسرفوا فى روايتها . وتوسعوا فى ذكرها : الإمام محمد بن جرير الطبرى فى كتابه « جامع البيان فى تفسير القرآن » ، والإمام أحمد بن إبراهيم الثعلبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ فى تفسيره المسمى : « الكشف والبيان

---

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبى ١/١٦٩ ، ١٧٠ والفوز الكبير فى أصول التفسير للدهلوى ص ٣٥

عن تفسير القرآن . وأبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء البغوى المتوفى سنة ٥١٠ هـ فى كتابه : « معالم التنزيل » .

أما المفسرون الذين قللوا من رواية الإسرائيليات إلى حد كبير ، واحتاطوا فى إيرادها والأخذ بها، فمن أبرزهم : منصور بن محمد بن عبد الجبار أبى المظفر السمعانى المتوفى سنة ٤٨٩ هـ فى كتابه تفسير القرآن ، وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى المتوفى سنة ٥٤٦ هـ فى كتابة : « المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز » ، والحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن عمرو بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ فى كتابة تفسير القرآن العظيم »

لقد أدرك السمعانى — رحمه الله تعالى — خطورة الإسرائيليات ومالها من أثر سيء على كتب التفسير التى اشتملت عليها ، وجعلت الناظر فى هذه الكتب لا يقبل شيئا مما جاء فيها لاعتقاده أن الكل من واد واحد فكان حريصا كل الحرص أن ينزه تفسيره عن هذه الإسرائيليات . غير أنه لم يتخلص منها نهائيا ، وإنما أورد بعض الروايات ، ومن أمثلتها ماجاء فى تفسير قوله تعالى : (... وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت)[1] ، حيث قال - بعد أن فسر الآية وبين مافيها من قراءات - : والقصة فى ذلك ماحكى ابن عمر عن كعب الأحبار ، وهو قول عطاء بن أبى رباح ، وجماعة من المفسرين قالوا . إن الملائكة تعجبوا من كثرة معاصى بنى آدم ، فقال الله - تعالى - لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ماركبت فيهم لفعلتم مثل مافعلوا . فاختاروا من خياركم ملكين ، هاروت وماروت ، فأنزلهما الله - تعالى - إلى الأرض ، وأخذ عليهما أن لا يشركا ولا يقتلا ولا يزنيا . قال كعب : فما مضى عليهما اليوم إلا وفعلا الكل .

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة البقرة .

وفى القصة : أن المزنى بها كانت الزهرة فمسخت شهابا ، ورفعت إلى السماء ، فكان ابن عمر كلما رآها لعنها .

وفى القصة : أنهما لما ارتكبا ذلك خيرهما الله — تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا فعلقا بأرجلهما . قال عطاء ابن أبى رباح : رؤوسهما مطوية تحت أجنحتهما[2] .

نقل السمعانى هذه القصة عن كعب الأحبار — وهو من أحبار اليهود الذين دخلوا فى الإسلام ، وكان من أقطاب رواية الإسرائيليات فى التفسير - دون نقد أو بيان لزيفها وبطلانها مكتفيا بإسناد الرواية إلى قائلها ، ومقتصرا فى نقله لها على ما أوردناه فقط .

وقد حكم بوضع هذه القصة الإمام أبو الفرج بن الجوزى ، ونص الشهاب العراقى على أن من اعتقد فى هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما : فهو كافر بالله العظيم[3] .

وقال القاضى عياض فى كتابه « الشفا » : وماذكره أهل الأخبار ، ونقله المفسرون فى قصة هاروت وماروت : لم يرد فيه شيء لاسقيم ، ولاصحيح عن رسول الله ﷺ ، وليس هو شيئا يؤخذ بالقياس[3] .

ومن الأمثلة ماذكره السمعانى أيضا ماجاء فى قصة نبى الله داود — عليه السلام — عند تفسير قوله تعالى : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة »[4] حيث قال : ذكر أهل التفسير أن سبب ابتلاء

---

(١) تفسير القرآن ١ / ١١٦ ، ١١٧ .

(٢ ، ٣) انظر روح المعانى للآلوسى ١ / ٣٤١ ، والإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص ٢٢٨ .

(٤) الآية ٢٣ من سورة ص .

داود ـ عليه السلام ـ أنه فتن بامرأة أوريا بن حنان ، وسبب ذلك أن داود ـ صلوات الله عليه ـ كان قسم أيامه ، فكان يخلو يوماً للعبادة ، ويخلو يوما لنسائه ، ويجلس للقضاء يوما مع بنى إسرائيل فيذا كرهم ويذا كرونه فجلس يوماً مع بنى إسرائيل يذا كرهم ، فذا كروا فتنة النساء ، فأضمر داود فى نفسه أنه إن ابتلى اعتصم .

وفى بعض التفاسير : أن داود ـ عليه السلام ـ رأى قرينيه من الملائكة ، فقال لهما : مابا لكما معى ، فقالا : نحفظك ونحرسك ، فتفكر فى نفسه أنه كان ما يحترز عنه من الأشياء يكون بحفظها ، أو مايفعل من العبادة فيكون بحفظها ، فهو لايحمد فى ذلك ، فأمر الله تعالى الملكين أن يخلياه يوما .

وفى بعض القصص : أن الله تعالى حذره يوما ، وقال : هو يوم فتنتك وفى بعضها : أنه سمع بنى إسرائيل يقولون فى دعواتهم : ياإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فأحب أن يذكرمعهم فذكرذلك لله تعالى فى مناجاته ، فقال : ياداود إنى ابتليتهم فصبروا . فقال : لو ابتليتنى صبرت . فقال : ياداود إنى مبتليك يوم كذا . فلما كان ذلك اليوم دخل فى متعبده ، وتخلى للعبادة ، وهذا الوجه الثالث غريب ، والمشهور ماذكرنا من قبل .

قالوا : ولما كان فى ذلك اليوم وتخلى للعبادة ، وجعل يصلى ويقرأ التوراة والزبور ويكب على قراءتهما ، فبينما هو خلال ذلك ، إذ سقط طير من ذهب قريبا منه ، ويقال : إنه إبليس تصور فى صورة طير ، وكان جناحاه من الدر والزبرجد ، فأعجبه حسن الطير ، فقصد أن يأخذه فتباعد منه ، وجعل هو يتباعد إلى أن أسرف فى اتباعه إلى دار من دور جيرانه فرأى امرأة تغتسل ، فأعجبه حسنها وخلقها ، وفتن بها . فلما أحست المرأة بمن ينظر إليها . حللت شعرها . فغشاها شعرها فازداد داود فتنة . ورجع

وسأل عن المرأة . فقيل : إنها امرأة أوريا ابن حنان فكان فى ذلك الوقت توجه غازيا إلى بعض الثغور . فأحب أن يقتل ويتزوج بامرأته . فذكر بعضهم أن ذنبه كان هذا القدر .

وذكر بعضهم : أنه كتب إلى أمير الجيش أن يجعل أوريا قدام التابوت . وكان من جعل قدام التابوت . فإما أن يقتل أو يفتح الله على يديه . فلما جعل قدام التابوت قتل . فتزوج داود المرأة بعدما انقضت عدتها[1] .

ذكر السمعانى هذه القصة ـ بعد أن حكم عليها بالغرابة ـ فى حق داود عليه السلام . وماهى إلا اختلاقات وأكاذيب أهل الكتاب . وهل يشك مؤمن عاقل يقر بعصمة الأنبياء فى استحالة صدور هذا عن داود ـ عليه السلام ـ ومثل هذا التدبير السيء . والاسترسال فيه على ماروووا . لوصدر من رجل من سوقة الناس وعامتهم لاعتبر هذا أمرا مستهجنا مستقبحا : فكيف يصدر من رسول جاء لهداية الناس . زكت نفسه وطهرت سريرته . وعصمه الله من الفواحش ماظهر منها وما بطن . وهو الأسوة الحسنة لمن أرسل إليهم ؟!!

ولو أن القصة كانت صحيحة لذهبت بعصمة داود . ولنفرت منه الناس ولكان لهم العذر فى عدم الإيمان به . فلا يحصل المقصد الذى من أجله أرسل الرسل . وكيف يكون على هذا الحال من قال الله تعالى فى شأنه : « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب »[2] .

---

(١) تفسير القرآن ٤ / ٤٣٢ ـ ٤٣٣ .
(٢) الآية ٢٥ من سورة ص .

وبعد هذه الأمثلة فيمكن القول : بأن السمعانى - رحمه الله تعالى - كان شديد الحذر من رواية الإسرائيليات وهو بصدد تفسير القرآن الكريم ، بل كان يشير فى بعض الأحيان إلى أنها من المزاعم ، أومن الأقوال الغريبة . ويمكن القول أيضا : بأن السمعانى لم يكن يقصد بهذه المرويات الإسرائيلية التى رواها فى قصص الأنبياء باختصار شديد تفسير القرآن . لذلك تساهل فى ذكرها ، وعدم نقدها مكتفيا بإسنادها إلى أصحابها وشهرتهم عند الناس أنهم من المعروفين برواية الإسرائيليات .

الأساس الثامن

موقفة من تفسير آيات الصفات

يمثل هذا الأساس أهم الأسس التى يقوم عليها منهج السمعانى فى تفسيره للآيات المتعلقة بالمشاكل الخلافية ، ذات الصلة الوثيقة بمسائل العقيدة ، كالآيات المتضمنة لصفات الله تعالى ، وما دار حولها من آراء ومذاهب .

والسمعانى فى تفسير مثل هذا النوع من الآيات يتناسق مع اتجاهات آرائه الفكرية ، وما استقرت عليه عقيدته فيها ، مستندا فى ذلك إلى ماتدل عليه النصوص اتباعا لمذهب أهل السنة فى الاعتماد على النصوص عند استنباط الأحكام والعقائد .

وبناء على ذلك فإن تفسيره لآيات الصفات يعتمد على أساس : إثبات صفات الكمال لله تعالى ، حسبما وصف به نفسه . وأن هذه الصفات لايحصى عددها إلا الله تعالى ، مع اعتقاد تنزهه - سبحانه - عن المشابهة والمماثلة . حيث يقول فى مسألة « الاستواء » عند تفسير قوله تعالى :

« ثم استوى على العرش »(١) : أول المعتزلة الاستواء . بالاستيلاء ، وأنشدوا فيه :

قد استوى بشر على العراق
من غير سيف ودم مهرق

وأما أهل السنة فيتبرءون من هذا التأويل . ويقولون : إن الاستواء على العرش صفة لله - تعالى - بلا كيف ، والإيمان به واجب ، كذلك يحكى عن مالك بن أنس وغيره من السلف أنهم قالوا فى هذه الآية : الإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة (٢) .

وعن إثبات صفة « الاستعلاء » عند تفسير قوله تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم »(٣) قال : قال بعضهم معناه : يخافون عذاب ربهم من فوقهم - والقول الثانى - وهو الأصح - أن هذه صفة العلو التى تفرد الله - تعالى - بها . وهو كما وصف به نفسه من غير تكييف (٤) .

وعن إثبات رؤية العباد لله تعالى فى الآخرة عند تفسير قوله تعالى : « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »(٥) حيث قال السمعانى : استدل بهذه الآية من يعتقد نفى الرؤية . قالوا لما مدح بأنه لاتدركه الأبصار فدحه على الأبد فى الدنيا والآخرة . واعلم أن

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .
(٢) تفسير القرآن ٢ / ١٨٨ .
(٣) الآية ٥٠ من سورة النحل .
(٤) تفسير القرآن ٣ / ١٧٧ .
(٥) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

الرؤية حق على مذهب أهل السنة ، وقد ورد به القرآن والسنة .

قال الله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة »[١] . وقال : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجبون »[٢] : وقال : « فمن كان يرجو لقاء ربه »[٣] ونحو هذا .

وروى جرير بن عبد الله البجلي ، وغيره بروايات صحيحة عن النبي ﷺ أنه قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، لا تضامون في رؤيته »[٤] .

فأما قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » فالإدراك غير الرؤية ، لأن الإدراك : هو الوقوف على كنه الشيء وحقيقته ، والرؤية : هي المعاينة ، وقد تكون الرؤية بلا إدراك .

قال تعالى في قصة موسى : « فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا »[٥] فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية ، وإذا كان الإدراك غير الرؤية ، فالله ـ تعالى ـ يجوز أن يرى ، ولكن لا يدرك كنهه ، إذ لا كنه له حتى يدرك ، وهذا كما يعلم ويعرف ولا يحاط به ، كما قال تعالى : « ولا يحيطون به علما »[٦] فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم .

(١) الآيتان ٢٢ - ٢٣ من سورة القيامة .
(٢) الآية ١٥ من سورة المطففين .
(٣) الآية ١١٠ من سورة الكهف .
(٤) الحديث : رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة . باب فضل صلاة العصر ، راجع فتح الباري ٢ / ٤٠ رقم ٥٥٤ .
(٥) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الشعراء .
(٦) الآية ١١٠ من سورة طه .

وقال ابن عباس ـ حكاه مقاتل عنه ، والأول : قول الزجاج : معنى قوله : « لا تدركه الأبصار » يعني في الدنيا ، هو يرى الخلق ، ولا يراه الخلق في الدنيا بدليل قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة »[١] ، فكما أثبت الرؤية بتلك الآية في الآخرة ، دل على أن المراد بهذه الآية الإدراك في الدنيا ، ليكون جمعا بين الآيتين[٢] .

موقف السمعاني من أصحاب المذاهب العقائدية :

ولما كان هذا هو منهج السمعاني ومذهبه العقائدي ، فقد رد على أهل الأهواء والبدع ، ودحض شبهاتهم وأباطيلهم ، وذلك من خلال تفسيره ، فما من آية من آيات القرآن اتخذها أهل الأهواء والبدع دليلا لنصرة مذاهبهم ، أو صرفوها عن ظاهرها وأولوها ، إلا رأيته متصدياً لهم مبطلا لبدعهم ، ومنتصراً لمذهب أهل السنة والجماعة ، ومبيناً وجه الحق في المسألة ، وقد أكثر من ذلك على مدار تفسيره كله .

فمثلا حين تكلم عن الإيمان وحقيقته قال : والإيمان في الشريعة يشتمل على الاعتقاد بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان[٣] .

ورد على من يخرج الاعتقاد من جملة الإيمان ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين »[٤] حيث قال : نفى الإيمان عنهم ، حيث أظهروا الإسلام

(١) الآيتان ٢٢ - ٢٣ من سورة القيامة .
(٢) تفسير القرآن ١٣٢/٢ - ١٣٣ .
(٣) تفسير القرآن ١ / ٤٣ .
(٤) الآية ٨ من سورة البقرة .

باللسان ولم يعتقدوا بالجنان . وهذا دليل على من يخرج الاعتقاد من جملة الإيمان[١] .

ورد على المرجئة الذين أخرجوا العمل من مسمى الإيمان حيث قال عند تفسير قوله تعالى : « وما كان الله ليضيع إيمانكم »[٢] أى صلاتكم ، فجعل الصلاة إيماناً ، وهذا دليل على المرجئة ، حيث لم يجعلوا الصلاة من الإيمان ، وإنما سموا مرجئة لأنهم أخرجوا العمل عن الإيمان[٣] .

ورد السمعانى على المعتزلة ادعاءهم التأبيد بالوعد والوعيد لعصاة المؤمنين ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً »[٤] فبعد أن فسر الآية وبين آراء العلماء فيها قال : « واعلم أن لامتعلق فى هذه الآية لمن يقول بالتخليد فى النار لأهل الكبائر من المسلمين ، لأنا إن نظرنا إلى سبب نزول الآية ، فالآية نزلت فى قاتل كافر كما بينا .

وقيل : إنه فيمن يقتل مستحلا ، والأولى : أن نقول فيه ما قاله أبو صالح : إن معنى قوله : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » إن جازى . وبه نقول : إن الله تعالى إن جازاه ذلك خالداً ، فهو جزاؤه ، ولكنه

(١) تفسير القرآن ١/٤٧ .
(٢) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .
(٣) تفسير القرآن ١ / ١٥٠ .
(٤) الآية ٩٣ من سورة النساء .

ربما لايجازى . وقد وعد أن لايجازى ويغفر لمن يشاء ، وهو لايخلف الميعاد .

وحكى عن قريش بن أنس — رحمه الله — أنه قال : كنت فى مجلس فيه عمرو بن عبيد ، فقال : لو قال الله لى يوم القيامة : لم قلت بتخليد القاتل المتعمد فى النار ؟ فأقول له : أنت الذى قلت : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » .

قال قريش : وكنت أصغر القوم . فقلت له : أرأيت لو قال الله تعالى لك : ألست قلت : « ويغفر مادون ذلك لمن يشاء »[١] ، فمن أين علمت أنى لم أشأ مغفرة القاتل ؟ فسكت ولم يستطع جواباً .

وحكى أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبى عمرو بن العلاء — رحمه الله — وقال له : هل يخلف الله وعده ؟ فقال : لا . فقال : أليس قال الله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » فأنا على هذا ، لايخلف وعده ، فقال أبو عمرو : ومن العجمة أوتيت يا أبا عثمان . إن العرب لاتعد الإخلاف فى الوعيد خلفا وذما ، وإنما ذلك فى الخلف فى الوعد . وأنشد له قول القائل :

وإنى إذا أوعدته ووعدته
لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

فقد تمدح بالخلف فى الوعيد . وقال آخر :

وإذا وعد السراء أنجز وعده
وإن وعد الضراء فالعفو مانعه[٢]

(١) الآية ٤٨ - ١١٦ من سورة النساء .
(٢) تفسير القرآن ١ / ٤٦٤ - ٤٦٥ .

ويرد السمعانى على القدرية ادعاءهم أن الله تعالى شاء إيمان جميع الناس . وذلك عند تفسير قوله تعالى : « ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً »[١] حيث قال : فى الآية رد على القدرية ، فإنه تعالى أخبر أنه لم يشأ إيمان جميع الناس ، وعندهم أنه شاء إيمان جميع الناس[٢] .

وعند تفسير قوله تعالى : « وقال الذين أشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء . . »[٣] قال : وقد احتجت القدرية بهذه الآية ، ووجه احتجاجهم أن المشركين قالوا : لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا . ثم إن الله تعالى فى آخر الآية قال : « كذلك فعل الذين من قبلهم » ردا وإنكاراً عليهم . فدل على أن الله تعالى لايشاء الكفر . وأنهم فعلوا مافعلوا بغير مشيئة الله .

والجواب عنه : ذكر الزجاج وغيره أنهم قالوا هذا القول على طريق الاستهزاء لاعلى طريق التحقيق . ولوقالوا على طريق التحقيق لكان قولهم موافقا لقول المؤمنين . وهذا مثل قوله تعالى : فى قصة شعيب : « إنك لأنت الحليم الرشيد »[٤] فإنهم قالوا هذا على طريق الاستهزاء لاعلى طريق التحقيق . وكذلك قوله تعالى : فى سورة يس : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا

---

(١) الآية ٩٩ من سورة يونس .
(٢) تفسير القرآن ٢/٤٠٦ .
(٣) الآية ٣٥ من سورة النحل .
(٤) الآية ٨٧ من سورة هود .

أنطعم من لو يشاء الله أطعمه »[١] وهذا إنما قالوه على طريق الاستهزاء لأنه فى نفسه قول حق يوافق قول المؤمنين ، كذلك هاهنا قالوا ماقالوا على طريق الاستهزاء . فلهذا أنكر الله تعالى عليهم ورد قولهم ، والدليل على أن المراد من هذا ماذكر من بعد وسنبين .

يقصد السمعانى - رحمه الله تعالى - قول الله سبحانه : (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة)[٢] حيث قال : معناه : فمنهم من هداه الله للإيمان . ومنهم من وجبت عليه الضلالة . وتركه فى الكفر بالقضاء السابق ، فهذه الآية تبين أن من آمن آمن بمشيئة الله ، وأن من كفر . كفر بمشيئة الله[٣] .

ويرد السمعانى على الخوارج رأيهم فى كفر من لم يحكم بما أنزل الله ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[٤] حيث قال : قال البراء بن عازب — وهو قول الحسن — الآية فى المشركين . وقال ابن عباس : الآية فى المسلمين ، وأراد به كفر دون كفر ، واعلم أن الخوارج يستدلون بهذه الآية ، ويقولون : من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر .

وأهل السنة قالوا : لايكفر بترك الحكم ، وللآية تأويلان : أحدهما معناه : ومن لم يحكم بما أنزل الله رداً وجحداً فأولئك هم الكافرون . والثانى معناه : ومن لم يحكم بكل ماأنزل الله فأولئك هم

---

(١) الآية ٤٧ من سورة يس .
(٢) « ٣٦ « النحل .
(٣) تفسير القرآن ٣/١٧٢ .
(٤) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

الكافرون : والكافر : هو الذى يترك الحكم بكل ماأنزل الله دون المسلم[١] .

كما يرد السمعانى - رحمه الله تعالى - على الشيعة إدعاءهم أن الأزواج ليسوا من الأهل ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : (قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت)[٢] حيث قال : وقوله : (عليكم أهل البيت) هذا دليل على أن الأزواج يجوز أن يسمين أهل البيت[٣] .

وزعمت الشيعة فى قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت)[٤] . أن الأزواج لايدخلن فى هذا ، وهذه الآية دليل عل أنهن يدخلن فيها[٥] .

وهكذا كان السمعانى - رحمه الله تعالى - يرد على كل المخالفين له فى مذهبه العقائدى - مذهب أهل السنة - عند كل آية اتخذها أحد منهم دليلا لباطله ، وكان بحق - كما قال الذهبى عنه - شوكا فى أعين المخالفين وحجة لأهل السنة . رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

---

(١) تفسير القرآن ٢/٤٢

(٢) الآية ٧٣ من سورة هود .

(٣) تفسير القرآن ٢/٤٤٤

(٤) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .

(٥) تفسير القرآن ٢/٤٤٤

المبحث الثالث

موقف السمعانى من قضايا علوم القرآن

لما كانت قضايا علوم القرآن من أهم الموضوعات التى يجب على المفسر أن يكون على دراية بها ، وأن لايغفلها فى تفسيره ، لأن علوم القرآن بالنسبة لعلم التفسير كالمقدمة بالنسبة للنتيجة ، وكالوسيلة بالنسبة للغاية ، ولا يستطيع المشتغل بالتفسير أن يتسنى له النظر فى آيات القرآن الكريم وإبداء رأى فى معناها ، إلا إذا كان على دراية تامة بموضوعات علوم القرآن كمعرفة أسباب نزول القرآن ، ومحكمه ومتشابهه . وناسخه ومنسوخه ، ومطلقه ومقيده إلى غير ذلك من الموضوعات المفيدة فى هذا المجال :

وإذا كان السمعانى - رحمه الله تعالى - لم يجعل فى مقدمة تفسيره بحثا يتناول فيه بعض تلك الموضوعات والحديث عنها كما فعل كثير من المفسرين أمثال ابن جرير الطبرى ، والقرطبى ، وابن جزى الكلبى وغيرهم ، فإنه لم يغفل الحديث عن كثير من قضايا علوم القرآن أثناء تعرضه لتفسير بعض الآيات . ومن أهم هذه القضايا مايلى :

أولا : موقفه من النسخ فى القرآن :

لما كان النسخ فى القرآن من أهم القضايا التى يحتاج إلى معرفتها كل مفسر للقرآن الكريم قبل الخوض فى بحر التفسير حتى يسلم من الأغلاط

والخطأ الفاحش ، والتأويلات المكروهة . لذا لم يغفل السمعانى الحديث عن بعض القضايا التى تندرج تحت علم الناسخ والمنسوخ . فعند تفسيره لقول الله تعالى : (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)[١] قام بتعريف النسخ فى اللغة ، وأنه جائز فى الجملة باتفاق العلماء ، وأن النسخ فى القرآن على وجوه ، وعدد هذه الوجوه مع التمثيل لكل وجه[٢] .

كما أنه يشير إلى كل آية قال عنها العلماء أنها منسوخة ، ويبين الناسخ لها ، وذلك عند تفسيره لهذه الآيات . ومن أمثلة ذلك ماذكره عند تفسير قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى)[٣] حيث قال : قال ابن عباس كان هذا فى ابتداء الإسلام ، وكان القصاص بين الحر والحر ، والعبد مع العبد ، والأنثى مع الأنثى ، وما كان يقتل الحر بالعبد ، ولا العبد بالحر ولا الأنثى بالذكر ، ولا الذكر بالأنثى . ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : (وكتبنا عليهم فيها أن النفس ..)[٤] فجرى القصاص بين الكل[٥] .

ويلاحظ على السمعانى أنه أحيانا يذكر أقوال العلماء حول بعض الآيات من حيث النسخ أو عدمه ، ويرجح مايراه راجحا مع التدليل لما يذكر . ومن أمثلة ذلك ماذكره عند تفسير قوله تعالى : (ولا تقاتلوهم

---

(١) الآية ١٠٦ من سورة البقرة .
(٢) تفسير القرآن ١/ ١٢١ — ١٢٤
(٣) الآية ١٧٨ من سورة البقرة .
(٤) « ٤٥ « « المائدة .
(٥) تفسير القرآن ١/ ١٧٣

عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه)[١] حيث قال : كذا كان — أى القتال — فى الابتداء حراماً بدايتهم بقتال فى البلد الحرام . ثم صار منسوخا . وقال عطاء : لم يصر هذا منسوخا . والأصح أن الآية منسوخة[٢] .

ومن ذلك أيضا ماذكره عند تفسير قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته)[٣] حيث قال : قال ابن مسعود هو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . وقال قتادة : الآية منسوخة بقوله : (فاتقوا الله ما استطعتم)[٤] .

قال أهل المعانى : لا يستقيم النسخ فيه وقوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) تفسير لهذه الآية ، لأن من أطاع الله فى وقت وجوب الطاعة ، وذكره فى وقت وجوب الذكر ، وشكره فى موضع وجوب الشكر . فقد اتقى الله حق تقاته . وهذا لم يصر منسوخا ، وقوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) موافق له ، لأن التقوى إن كانت فى موضع الأمر والوجوب . والأوامر والواجبات على قدر الاستطاعة . فتكون إحدى الآيتين موافقة للأخرى فلا يستقيم فيه النسخ[٥] .

---

(١) الآية ١٩١ من سورة البقرة .
(٢) تفسير القرآن ١/ ١٩٢ ، ١٩٣
(٣) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ١٦ من سورة التغابن .
(٥) تفسير القرآن ١/ ٣٤٤ ، ٣٤٥

ثانياً : موقفه من أسباب النزول :

يراد بسبب النزول : هو معرفة مانزلت الآية أو الآيات متضمنة له أو مجيبة عنه ، أو مبينة لحكمه زمن وقوعه[١]

ومعرفة سبب النزول أمر لازم لمن يتعاطى تفسير القرآن الكريم لأن سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب[٢] .

وقيل : لايمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها[٣] .

لذلك فقد اهتم السمعاني - رحمه الله تعالى - في تفسيره بأسباب نزول الآيات التي لها سبب نزول ، ومن أمثلة ذلك ماذكره عند تفسير قوله تعالى : (قل من كان عدواً لجبريل ..)[٤] حيث قال : وفي سبب نزول الآية قولان :

أحدهما : أن عمر - رضي الله عنه - قال لليهود أنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمداً في كتابكم ؟ فسكتوا . ثم عاودهم ثانيا . فقالوا : نعم : فقال عمر : فلم لم تؤمنوا به ؟ قالوا : لأنه ينزل عليه جبريل ، وهو عدونا ، وهو الذي يأتي بالعذاب ، ولو نزل

(١) مباحث في علوم القرآن ص ١٣٢ للدكتور / صبحي الصالح .
(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٤ لابن تيمية .
(٣) الاتقان في علوم القرآن ١ /٣٨
(٤) الآية ٩٧ من سورة البقرة .

عليه ميكائيل لآمنا به . فقال عمر : أشهد أن من كان عدوا لجبريل فهو عدو لميكائيل ، ومن كان عدوا لهما فالله عدو له ، فنزلت الآية على وفق قول عمر .

والقول الثاني في سبب نزول الآية : أن ابن صوريا الأعور — وكان أعلم اليهود — أتى النبي ﷺ وقال : إني سائلك مسائل لا يعرفها إلا نبي فإن أجبتني عرفتك صادقا . فقال : سل . قال ابن صوريا : ما علامة النبي ؟ قال : أن تنام عيناه ولا ينام قلبه . قال : صدقت . ثم قال : كيف خلق الولد من الماءين ؟ قال : إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكر بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنث بإذن الله — قال : ومن ينزل عليك من الملائكة ؟ قال جبريل ، فقال : لو نزل عليك ميكائيل لآمنا بك ، فإنه عدونا — فنزل قوله تعالى : « قل من كان عدوا لجبريل . . » الآية[١] .

ومن ذلك أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم »[٢] حيث قال السمعاني رحمه الله تعالى : وفي سبب نزول الآية قولان :

أحدهما : أن الصحابة كانوا يقولون للنبي ﷺ : « راعنا » ويريدون به ما ذكرنا[٣] « فسمعه اليهود . وكان ذلك عندهم سباً ، وهو بمعنى يا أحمق ... فلما سمعه اليهود فرحوا به ، حيث رأوهم يسبونه

(١) تفسير القرآن ١/١١١ ، ١١٢
(٢) الآية ١٠٤ من سورة البقرة .
(٣) يقصد أن قوله : راعنا ، بمعنى أرعنا سمعك واسمع منا .

ولا يعلمون ، وكانوا يقولون ذلك للنبى ﷺ موافقة للمسلمين فى الظاهر ويضحكون فيما بينهم ، إنا نسبه وهم لا يعلمون ، فنزل قوله تعالى : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » .

والقول الثانى : أن قولهم : « راعنا » كان فيه جفوة وخشونة ، لأن حقيقته فرغ سمعك لكلامنا حتى نفهم ، وفى هذا نوع جفاء ، فنزل قوله : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » حتى يقولوا على طريق التبجيل والمسألة . ويختاروا من الألفاظ أحسنها ومن المعانى أحكمها[1] .

وهكذا لم يترك السمعانى آية أو كلمة لها سبب نزول إلا ذكره ونبه عليه . لأن معرفة السبب تعين على معرفة المسبب .

ثالثاً : المكى والمدنى :

ينبه السمعانى — رحمه الله تعالى : — فى بداية تفسير كل سورة عن كونها مكية أو مدنية ، ويشير إلى الآيات المختلف فيها داخل السورة . وهذا أمر مهم ينبغى معرفته إذ يتوقف عليه بيان الناسخ من المنسوخ من الآيات .

ومن أمثلة ما ذكره السمعانى فى هذا المجال ، ما جاء فى بدء تفسير سورة النساء . حيث قال : اعلم أن هذه السورة تسمى سورة النساء ؛ وتسمى سورة الأحكام ؛ وهى مدنية على قول أكثر المفسرين

(١) تفسير القرآن ١١٩/١ ؛ ١٢٠

إلا قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »[1] فإن هذه الآية نزلت بمكة فى مفاتيح الكعبة . وأورد النحاس أن السورة مكية[2] .

ومن ذلك أيضا ما جاء فى بداية تفسيره لسورة الأنعام حيث قال : اعلم أن سورة « الأنعام » مكية ؛ روى يوسف بن مهران عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : سورة الأنعام نزلت جملة بمكة ليلا معها سبعون ألف ملك يحدونها بالتسبيح . . .

وفى رواية عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال : نزلت سورة « الأنعام » جملة بمكة إلا آيتين : قوله تعالى : « قل تعالوا . . . »[3] ؛ وقوله : ما قدروا الله حق قدره . . . »[4] . وفى بعض الروايات إلا ثلاث آيات من قوله : « قل تعالوا . . . إلى آخر الآيات الثلاث[5] .

وهكذا يفعل السمعانى فى بداية تفسير كل سورة ينبه على كونها مكية أو مدنية ؛ ويذكر أقوال العلماء فى الآيات المختلف فيها ؛ ويذكر بعض الروايات فى فضائل كل سورة دون أن يتطرق للحديث الموضوع فى فضل السور كما فعل الزمخشرى فى تفسيره وغيره من المفسرين .

(١) الآية ٥٨
(٢) تفسير القرآن ٣٩٢/١
(٣) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٩١ من سورة الأنعام .
(٥) تفسير القرآن ٥٨/٢

ولم يقف السمعانى عند هذا الحد فى الكلام عن المكى والمدنى . بل يشير إلى بعض الضوابط التى ذكرها العلماء للمكى والمدنى . ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » فى أول سورة النساء حيث قال : قال علقمة : كل ما نزل فى القرآن : « يا أيها الناس » فإنما نزل بمكة . وكل ما ورد فى القرآن : « يا أيها الذين آمنوا » فإنما نزل بالمدينة[1] .

وقد أشار إليه ثانية عند تفسير قوله : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » فى أول سورة المائدة .

ويلاحظ على السمعانى — رحمه الله تعالى — أنه ارتضى هذا القول حيث نقله ولم يعقب عليه . والصواب : أن هذا الحكم أغلبى وليس كلى . فغالب ما نزل فى القرآن . « يا أيها الناس » نزل بمكة . وليس كل ما نزل . لأن هذه الآية التى ذكرها السمعانى فى أول سورة النساء وهى مدنية كما أشار هو بذلك . وكذلك قوله تعالى : فى سورة البقرة : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم »[2] نزلت بالمدينة . وقد أشار هو بذلك حيث قال فى بداية تفسير السورة : اعلم أن سورة البقرة مدنية باتفاق الأئمة[3] .

رابعاً : موقفه من ذكر المناسبة بين الآيات :

لما كان علم المناسبة علم شريف تحرز به العقول . ويعرف قدر

(١) تفسير القرآن ١/٣٩٣
(٢) الآية ٢١ من سورة البقرة .
(٣) تفسير القرآن ١/٤٠

القائل فيما يقول ، وفائدته — كما يقول السيوطى — جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء[1] .

لذلك لم يهمل السمعانى — رحمه الله تعالى — هذا العلم فى تفسيره ، ولكنه كان مقلا ولم يتوسع فيه كما فعل الإمام الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب ، وأبو حيان فى تفسيره البحر المحيط ، والآلوسى فى تفسيره روح المعانى .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد . . » الآية[2] .

حيث قال : فإن قال قائل أى اتصال لهذا بما سبق من الكلام فى الآية ؟ قال المبرد أبو العباس محمد بن يزيد معناه : أن ألهمتهم ذلك الاحترام ، وأن لا يتعرضوا لأهل الحرم ، فكأنه بين فى الآية صنعه مع أهل الحرم ، قال ذلك لتعلموا أن كل ذلك بعلمى وإلهامى إياهم[3] .

ومن ذلك أيضاً ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم »[4] .

حيث قال : ووجه اتصال هذا بما قبله ، أنه لما من عليه بالقرآن ،

(١) تفسير القرآن ١ / ٤٠ .
(٢) الاتقان فى علوم القرآن ٢ / ١٣٩ .
(٣) الآية ٩٧ من سورة المائدة .
(٤) تفسير القرآن ٣ / ١٥١ .
(٥) الآية ٨٨ من سورة الحجر .

نهاه عن الرغبة فى الدنيا والنظر إلى زينتها ، ومزاحمة أهلها عليها[١] .

ومن أمثلة ذلك أيضا ماجاء عند تفسير قوله تعالى : « فإنه كان للأوابين غفورا »[٢] . حيث قال : ووجه اتصال الآية بما قبلها : هو أن الله تعالى قال : « ربكم أعلم بما فى نفوسكم » من العقوق والبر ، فإن بدرت من بار بدرة من العقوق ، فإن الله كان للأوابين غفورا »[٣] .

خامساً : موقفه من مشكل القرآن وموهم الاختلاف والتناقض :

وهو مايوهم التعارض بين آيات القرآن ، وكلام الله جل جلاله منزه عن الاختلاف ، كما قال تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »[٤] ، ولكن قد يقع للمبتدىء مايوهم اختلافا وليس به ، فاحتيج لإزالته[٥] .

لذلك لم يغفل السمعانى — رحمه الله تعالى — هذا النوع من علوم القرآن حتى يزيل مثل هذا الالتباس أو التعارض بين آيات القرآن ، ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « ولا يكتمون الله حديثا »[٦] حيث قال : فإن قيل : قد أخبر هاهنا أنهم لايكتمون الله حديثا ،

(١) تفسير القرآن ٣ / ١٥١ .
(٢) الآية ٢٥ من سورة الإسراء .
(٣) تفسير القرآن ٣ / ٢٣٤ .
(٤) الآية ٨٢ من سورة النساء .
(٥) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٢/٤٥ .
(٦) الآية ٤٢ من سورة النساء .

وذكر فى موضع آخر قولهم : « والله ربنا ما كنا مشركين »[١] فقد كتموا ، فكيف وجه الجمع ؟ قيل : قال الحسن البصرى : وهذا فى موطن وذاك فى موطن آخر ، وفى القيامة مواطن ، وهذا جواب معروف أورده القتيبى فى مشكل القرآن .

وقيل : معناه : يودون أن لا يكتمون الله حديثا ، وذلك أنهم يقولون : « والله ربنا ما كنا مشركين » ، ونحو ذلك ، فيختم الله على أفواههم ، وينطق جوارحهم ، فيودون أنهم لم يكتموا الله حديثا فهو راجع إلى قوله : « يود الذين كفروا » . وقيل : معناه : لايقدرون أن يكتموا الله حديثا[٢] .

ومن ذلك أيضا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « قل كل من عند الله » وقوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك »[٣] حيث قال — بعد تفسيره للآيتين : — فإن قيل : كيف وجه الجمع بين الآيتين ؟ فإنه قد قال — فى الآية الأولى — : « قل كل من عند الله » . قيل : معنى الآية الأولى : أن الخطب والجدب والنصرة والهزيمة كلها تقع من عند الله ، ومعنى الآية الثانية : « وما أصابك من حسنة فمن نفسك » أى ما أصابك من سيئة من الله ، فبذنب نفسك عقوبة لك[٤] .

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنعام .
(٢) تفسير القرآن ١ / ٤٣٠ .
(٣) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ من سورة النساء .
(٤) تفسير القرآن ١ / ٤٥٠ . ٤٥١ .

قواعد الترجيح عند السمعانى

والمقصود من قواعد الترجيح : أنها الضوابط والأمور التى يتوصل بها إلى معرفة الراجح من الأقوال المختلفة فى تفسير كتاب الله تعالى .

قال الزركشى : واعلم أن التراجيح كثيرة ، ومناطها ما كان إفادته للظن أكثر فهو الأرجح[1] .

وكان السمعانى — رحمه الله تعالى — معنيا بذكر أقوال العلماء فى تفسير آيات القرآن ، ولم يكن مجرد ناقل للأقوال ، وإنما كانت له شخصيته المستقله حيث ينقل الأقوال ويرجح منها مايراه راجحا مبينا السبب الذى استند إليه فى ترجيح قول على قول . وبعد الدراسة والتمحيص لتفسير السمعانى وجدت أنه يستند إلى جملة من القواعد من أهمها مايلى :

أولا : الترجيح بظاهر اللفظ القرآنى :

فالأصل فى نصوص القرآن ـ وكذا السنة ـ أن تحمل على ظواهرها ، وتفسر على حسب مايقتضيه ظاهر اللفظ ، ولايجوز أن يعدل بألفاظ الوحى عن ظاهرها إلا بدليل واضح يجب الرجوع إليه . وهذا ماتقرر فى علم الأصول[2] . ولأنه لايعرف مراد المتكلم إلا بالألفاظ الدالة عليه . والأصل فى كلامه وألفاظه أن يكون دالا على مافى نفسه من المعانى . وليس لنا طريق لمعرفة مراده غير كلامه وألفاظه .

والمراد بالظاهر : هو مايتبادر إلى الذهن من المعانى . وأنه ليس لها

(١) البحر المحيط له ٦ / ١٥٩

(٢) أضواء البيان للشنقيطى ٣ / ١٠٠

معنى باطن يخالف ظاهرها . وهو يختلف بحسب السياق . ومايضاف إليه الكلام . فالكلمة الواحدة يكون لها معنى فى سياق . ومعنى آخر فى سياق آخر . وتركيب الكلام يفيد معنى على وجه . ومعنى آخر على وجه آخر[1] .

وكثيراً مايرجح السمعانى بعض الأقوال فى تفسيره مستنداً إلى هذه القاعدة . ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ماحملت ظهورهما »[3] حيث قال : وقوله : « إلاماحملت ظهورهما » أى شحم ماحملت ظهورهما لم يحرم عليهم ، « أو الحوايا » تقديره : والحوايا ، أى وشحم المباعر . « أو ما اختلط بعظم » أى وشحم ما اختلط بعظم . قيل : هو الإلية . وقيل : هو شحم الجنب . ثم اختلفوا . أن الكل هل يدخل فى الاستثناء ؟ قال بعضهم : إنما يدخل فى الاستثناء شحم الظهور فحسب . فأما قوله : « أو الحوايا أو ما اختلط بعظم » راجع إلى التحريم . والصحيح : أن الكل يدخل فى الاستثناء . وهو ظاهر الآية[2] .

ومن ذلك أيضا ما ذكر عند تفسير قوله تعالى — فى حق قوم يونس عليه السلام — : « إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين »[4] حيث قال السمعانى : واختلف القول فى أنهم هل رأوا العذاب عيانا . أو رأوا دليل العذاب ؟ فالأكثرون على أنهم رأوا العذاب عيانا .

قال قتادة : تدنى عليهم العذاب حتى صار بينهم وبين العذاب قدر ميل . وقال بعضهم : رأوا دليل العذاب . ولم يروا عين العذاب .

(١) قواعد الترجيح لحسين بن على الحربى ١/١٣٧

(٢) الآية ١٤٦ من سورة الأنعام

(٣) تفسير القرآن ٢/١٥٣ (٤) الآية ٩٨ من سورة يونس

والقول الأول أصح ، بدليل قوله : (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) والكشف إنما يكون بعد وقوع العذاب أو قرب العذاب[١] .

ثانياً : الترجيح بما ورد فى سياق الآية :

وبيان ذلك أن المفسرين إذا تنازعوا فى تفسير آية أو جملة من كتاب الله فمنهم من يحملها على معنى لايخرجها عن سياق الآيات ، ومنهم من يحملها على معنى يخرجها عن معانى الآيات التى قبلها وبعدها ، ويجعلها معترضة فى السياق ، وحمل الآية على التفسير الذى يجعلها داخلة فى معانى ما قبلها وما بعدها أولى وأحسن ، لأنه أوفق للنظم وأليق بالسياق ما لم يرد دليل يمنع من هذا التفسير أو يصحح غيره .

قال العز بن عبد السلام : « إذا احتمل الكلام معنيين وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسياق كان الحمل عليه أولى »[٢] .

ونقل عنه الزركشى قوله : « السياق يرشد إلى تبيين المجملات ، وترجيح المحتملات ، وتقرير الواضحات ، وكل ذلك بعرف الاستعمال »[٣]

لذلك فقد رجح السمعانى بعض الأقوال على بعضها بدلالة السياق ، ومن أمثلة ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : « لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم »[٤] حيث قال : اللغو كل ما طرح من الكلام ، وفى معناه هنا خمسة أقوال :

---

(١) تفسير القرآن ٢/٤٠٦

(٢) الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز له ص ٢٢٠

(٣) البحر المحيط فى الأصول ٦/٥٢

(٤) الآية ٢٢٥ من سورة البقرة .

أحدهما : وهو قول عائشة — رضى الله عنها — قالت : يمين اللغو : قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ، وإى والله ، وهذا قول الشافعى .

الثانى : وهو قول أبى هريرة ، وابن عباس : وهو أن يحلف الرجل على شىء أنه فعله ولم يفعله ، أو على عكسه . وهو قول أبى حنيفة .

وقال الشعبى : هو اليمين فى حال الغضب . وقال سعيد بن جبير : هو الحلف بتحريم الحلال . وقال زيد بن أسلم : هو أن يقول الرجل : أعمى الله بصرى ، أو أتلف مالى ، إن لم أفعل كذا ، فهذا يمين اللغو ، والله لا يؤاخذ به ، ولو يؤاخذ به الناس لعجل عقوبتهم .

والأصح : ما قالت عائشة ، لأن الله تعالى قال : (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) وكسب القلب : هو القصد بالقلب إلى اليمين ، فدل أن يمين اللغو : ما لم يقصد بالقلب[١] .

ثالثاً : الترجيح بما صح عن رسول الله ﷺ :

فى الغالب يرجح السمعانى — رحمه الله تعالى — بعض الأقوال على بعضها بما ثبت وصح عن رسول الله ﷺ ، لأنه أعلم الناس بتفسير وبيان كلام الله تعالى ، وهذا هو مهام رسالته ، كما قال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم)[٢] ، ولا قول لأحد بعد قول رسول الله ﷺ .

ومن أمثلة ترجيح السمعانى بذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى :

---

(١) تفسير القرآن ١/٢٢٧ ، ٢٢٨

(٢) الآية ٤٤ من سورة النحل .

(فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره)[1] حيث قال : هو الطلقة الثالثة ، وحكمها تحريم العقد إلى أن يوجد الزوج الثانى ، ثم التحليل للزوج الأول إنما يحصل بالعقد والوطء جميعاً على قول أكثر العلماء .

وحكى عن سعيد بن المسيب — وقيل : عن سعيد بن جبير — أنه يحصل بمجرد النكاح بظاهر الآية ، وقد عد هذا من شواذ الخلاف .

والدليل على صحة القول الأول ما روى أن امرأة رفاعة القرظى جاءت رسول الله ﷺ وقالت : إن رفاعة بت طلاقى ، وتزوجت بعده بعبد الرحمن بن الزبير ، وإنما معه مثل هدبة الثوب ، فقال عليه السلام : « أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟ لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك »[2] فدلت السنة على اشتراط الوطء وهذا خبر صحيح[3] .

رابعاً : الترجيح بما ورد فى سبب نزول الآية :

قرر العلماء الأعلام أن من أهم فوائد معرفة أسباب النزول أنها تعين على فهم الآية على وجه صحيح ، فإذا تنازع العلماء فى تفسير آية من كتاب الله تعالى وتعددت أقوالهم فيها ، فأولى الأقوال بتفسير الآية ما وافق سبب النزول الصحيح الصريح فى السببية .

ومن هنا كان السمعانى — رحمه الله تعالى — يرجح بعض الأقوال على بعضها بما ورد فى أسباب النزول .

---

(١) الآية ٢٣٠ من سورة البقرة .
(٢) الحديث : سبق تخريجه .
(٣) تفسير القرآن ١ /٢٣٣

ومن أمثلة ذلك ماذكره عند تفسير قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »[1] ، حيث قال : وفى معناه قولان : أحدهما : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك الإنفاق فى سبيل الله .

والثانى : قال النعمان بن بشير ، والبراء بن عازب : إن المراد به : أن يذنب الرجل ثم يقول : لا توبة لى ، فيقنط من رحمة الله — ونعوذ بالله.

والأول أصح : لما روى عن أبى أيوب الأنصارى — رضى الله عنه قال : نزلت الآية فينا معشر الأنصار ، فإن الله لما نصر دينه ، وأعز نبيه ، قلنا : لو أقمنا فى أموالنا نصلحها ، ونترك الجهاد فإنه تضيع . فنزلت الآية : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) يعنى بترك الإنفاق فى الجهاد . والإقامة على الأموال . حتى روى : أنه لما نزلت الآية مازال أبو أيوب يغزو حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية فى بعث بعثه معاوية وتوفى هنالك . ودفن فى سور قسطنطينية وهم يستسقون[2] .

خامساً : الترجيح بما ثبت من تاريخ نزول الآية :

إذا اختلف العلماء فى تفسير آية من كتاب الله تعالى . فالقول الذى يوافق تاريخ نزول الآية هو القول الراجح . والقول الذى يخالف تاريخ نزولها . ولا يتفق معه فهو قول ضعيف أو مردود .

ولا أعنى بالتاريخ ضرورة معرفة الساعة واليوم والعام . وإنما يكفى فى التاريخ مرحلة زمنية كالعهد المكى قبل الهجرة . أو حادثة معينة كالإسراء أو غزوة معينة . أو القبلية والبعدية بالنسبة لسورة أخرى .

---

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .
(٢) تفسير القرآن ١/١٩٤ - ١٩٥

كأن يقال : سورة كذا نزلت قبل كذا ، فهذا ما أعنى به تاريخ النزول .

فمثلا إذا اختلف العلماء فى تفسير آية على قولين ، أحدهما يلزم منه أن تكون الآية مكية والآخر يلزم منه أن تكون الآية مدنية. واتفق العلماء على أن هذه الآية المفسرة مثلا مكية ، فالقول الذى يلزم منه أن تكون الآية مكية هو الراجح. وهذا ماسلكه السمعانى فى ترجيحه لبعض الأقوال على بعض ، ومن أمثلة ذلك ماذكره عند تفسير قوله تعالى : (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم)[1] .

حيث قال : هذا إشارة إلى مانزل فى سورة «الأنعام» : (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم)[2] نهى عن القعود معهم ، وماحكم القعود معهم ؟ أما إذا قعد معهم ورضى بما يخوضون فيه ، فهو كافر مثلهم ، وهو معنى قوله : (إنكم إذا مثلهم) . وإن قعد ولم يرض بما يخوضون فيه ، فالأولى أن لا يقعد ، ولكن لو قعد كارها ، فلا يكفر ، وهذا هو الحكم فى كل بدعة يخاض فيها ، فلو تركوا الخوض فيه وخاضوا فى حديث غيره ، فلا بأس بالقعود معهم وإن كره ، لقوله:(حتى يخوضوا فى حديث غيره) .

قال الحسن : وإن خاضوا فى حديث غيره لا يجوز القعود معهم ، لقوله فى سورة «الأنعام» : (وإماينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)[3] .

---

(١) الآية ١٤٠ من سورة النساء .
(٢،٣) الآية ٦٨ « « الأنعام .

والأكثرون على أنه يجوز ، وآية الأنعام مكية وهذه الآية مدنية ، والمتأخر أولى[1] .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ماجاء عند تفسير قوله تعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده)[2] حيث قال : اختلف العلماء فى هذا الحق ماهو ؟ قال ابن عمر ، وأبو الدرداء — وهو قول عطاء ومجاهد : إن هذا الحق كان حقاً فى المال سوى العشر المفروض ، وأمر بإيتائه .

وقال ابن عباس ، وأنس — وهو قول الحسن فى إحدى الروايتين عنه — إنه أراد به إيتاء العشر المفروض ، وعن الحسن — فى رواية أخرى ، وهو قول النخعى ، وسعيد بن جبير — أن هذا حق كان يؤمر بإيتائه فى ابتداء الإسلام ، ثم صار منسوخا بإيجاب العشر ، والقول الأول : أولى لأن الآية مكية ، والزكاة فرضت من بعد بالمدينة ، فحمله على حق سوى الزكاة أولى[3] .

هذه هى أهم القواعد التى كان يعتمدها السمعانى فى ترجيحه لبعض الأقوال على بعض ، وإن كان هناك قواعد أخرى سكت عنها اختصاراً للموضوع .

---

(١) تفسير القرآن ٤٩٢/١
(٢) الآية ١٤١ من سورة الأنعام .
(٣) تفسير القرآن ١٥٠/٢

الخـــاتمة

بعد الدراسة المتأنية التى قمت بها لكتاب السمعانى فى « تفسير القرآن » والتى تولد من خلالها هذا البحث الموجز ، يمكن لى أن أوجز أهم النتائج التى توصلت إليها من خـــلال الدراسة والبحث لهذا التفسير وذلك فيما يلى :

أولاً : أن السمعانى يلتزم فى تفسيره بالمصادر الأربعة المعتمدة فى التفسير بالمأثور وهى القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وأقوال الصحابة وأقوال التابعين ، كما كان يحسن فيه استخدام معارفه المتنوعة فى شتى العلوم العقلية واللغوية ، فجاء تفسيره جامعا بين الرواية والدراية .

ثانياً : أن السمعانى رائد من رواد التفسير وعلوم القرآن فى القرن الخامس الهجرى حيث قام بتفسير القرآن الكريم كاملا بأسلوب موجز رصين بعيداً عن الحشو والتطويل .

ثالثاً : تتضح شخصية السمعانى العلمية البارزة من خلال ذكره لأقوال المفسرين والترجيح بينها مدللا على مايختار من الكتاب والسنة كما أنه يقوم بتوجيه بعض الاشكالات النحوية الموجهة ضد بعض آيات القرآن الكريم .

رابعاً : اهتمام السمعانى فى تفسيره بكثير من قضايا علوم القرآن الكريم ، وخاصة موضوع أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، وموهم الاختلاف والتناقض وغير ذلك من موضوعات علوم القرآن .

خامساً : اهتمام السمعانى فى تفسيره بإبراز عقيدة أهل السنة ، والرد على أصحاب العقائد الباطلة والمذاهب الهدامة ، والأفكار المنحرفة .

سادساً : اختط السمعانى لنفسه منهجاً فريداً فى تفسيره للقرآن بحيث يمثل — فى عصره — منهجاً فريداً فى تفسير القرآن ، وكان من أبرز خصائصه احتواءه على أسلوب السؤال والجواب فى معالجة كثير من القضايا التفسيرية ، والفقهية ، والعقائدية وغير ذلك . والاهتمام بالقراءات وتوجيهها ، والحيطة الكاملة إلى حد كبير فى الأخذ بالإسرائيليات والتنبيه عليها مما يجعل هذا التفسير ذو قيمة علمية تضاف إلى المكتبة الإسلامية .

رحم الله السمعانى رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته بقدر ماخدم كتاب الله تعالى .

هذا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه

الدكتور / السيد اسماعيل على سليمان
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية أصول الدين بالقاهرة — جامعة الأزهر

١٤٢١ هـ — ٢٠٠١ م

فهرس بأسماء المراجع والمصادر

١) القرآن الكريم .

٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى/ طبعة مصطفى الحلبى الرابعة ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨م .

٣) إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر / لأحمد بن محمد أحمد الدمياطى المتوفى سنة ١٧)١هـ / طبعة عبد الحميد أحمد حنفى .

٤) الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير / للشيخ محمد بن محمد أبى شهبة / طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية - سلسلة مجمع البحوث الإسلامية ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م .

٥) الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز/ للعز بن عبدالسلام طبعة دار البشائر الإسلامية / بيروت الأولى ١٤٠٨ هـ .

٦) أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن / للشنقيطى / طبعة عالم الكتب بيروته .

٧) الأنساب / لأبى سعد ابن السمعانى / طبعة دار الجنان الأولى ١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م .

٨) البحر المحيط فى أصول الفقه / لبدر الدين الزركشى / طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت / الثانية ١٤١٣ هـ .

٩) البداية والنهاية / للحافظ ابن كثير / طبعة مكتبة المعارف بيروت

١٠) البرهان فى علوم القرآن / لبدر الدين الزركشى / طبعة دار المعرفة .

١١) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى / لمحمد بن عبد الرحمن المباركفورى / طبعة دار الكتب العلمية / بيروت .

١٢) تفسير القرآن / لأبى المظفر السمعانى / طبعة دار الوطن للنشر بالرياض / الأولى ١٤١٨ هـ — ١٩٩٧ م تحقيق / أبى تميم ياسر بن إبراهيم / وأبى بلال بن عباس بن غنيم .

١٣) التفسير والمفسرون / للذهبى / طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٩٦ هـ .

١٤) جامع البيان عن تأويل آى القرآن/ للطبرى / طبعة دار الفكر بيروت / وطبعة دار المعارف بمصر .

١٥) الجامع لأحكام القرآن / للقرطبى / طبعة دار الشعب .

١٦) روح المعانى / للآلوسى / طبعة مصورة عن طبعة دار التراث.

١٧) سنن ابن ماجة / طبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر .

١٨) سنن أبى داود السجستانى ، طبعة دار الفكر .

١٩) سنن النسائى « الصغرى » طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

٢٠) سير أعلام النبلاء / لشمس الدين الذهبى / طبعة مؤسسة الرسالة / الأولى ١٤٠٥هـ — ١٩٨٤م بيروت .

٢١) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب / لابن العماد / طبعة القدسى ١٣٥١ هـ .

٢٢) صحيح البخارى / لمحمد بن اسماعيل البخارى / طبعة دار الشعب ١٣٧٨ هـ .

٢٣) صحيح مسلم / لأبى الحسين مسلم بن الحجاج / طبعة دار إحياء التراث ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى .

٢٤) صحيح مسلم بشرح النووى / طبعة دار الغد بمصر .

٢٥) طبقات الشافعية الكبرى / لتاج الدين السبكى / طبعة عيسى الحلبى وشركاه ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٧ م .

٢٦) طبقات المفسرين / للدواوى / مطبعة الاستقلال الكبرى ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م

٢٧) العبر فى أخبار من غبر / لشمس الدين الذهبى / طبعة دار التراث العربى .

٢٨) فتح البارى بشرح صحيح البخارى / لابن حجر / طبعة دار الريان للتراث .

٢٩) الفوز الكبير فى أصول التفسير / للدهلوى / الطبعة المنيرية ١٣٤٦ هـ .

٣٠) قواعد الترجيح / لحسين بن على الحربى / طبعة دار القاسم الأولى ١٤١٧ هـ بالرياض .

٣١) كتاب السبعة فى القراءات / لابن مجاهد / طبعة دار المعارف .

٣٢) كتاب الضعفاء الكبير / لأبى جعفر العقيلى / طبعة دار الكتب العلمية — بيروت — الأولى ١٤٠٤ هـ .

٣٣) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون / لحاجى خليفة ، طبعة وكالة المعارف بالقاهرة ١٣٦٥ هـ

٣٤) اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة / للسيوطى / طبعة المكتبة الحسينية بالأزهر .

٣٥) اللباب فى تهذيب الأنساب / لابن الأثير الجزرى / طبعة دار صادر / بيروت ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م .

٣٦) مباحث فى علوم القرآن / لصبحى الصالح — طبعة دار العلم للملايين ١٩٨٥ م .

٣٧) المستدرك على الصحيحين / للحاكم / طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية — حلب .

٣٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل / طبعة المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ١٤٠٣ هـ .

٣٩) معجم البلدان / لأبى عبد الله ياقوت الحموى / طبعة دار الكتب العلمية بيروت الثانية ١٤١٨ هـ .

٤٠) مقدمة فى أصول التفسير / لشيخ الإسلام ابن تيمية / المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٩٩ هـ .

٤١) الموسوعة الحديثية « مسند الإمام أحمد » طبعة مؤسسة الرسالة — الأولى — ١٤١٤ هـ تحقيق / شعيب الأرنؤوط وآخرون .

٤٢) الموضوعات / لابن الجوزى / طبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنورة — الأولى — ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ ،

٤٣) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال / لشمس الدين الذهبى / طبعة دار المعرفة بيروت ١٣٨٢ هـ .

٤٤) النشر فى القراءات العشر / لابن الجزرى / طبعة دار الكتب العلمية بيروت .

٤٥) هدية العارفين من أسماء المؤلفين وآثار المصنفين / للبغدادى طبع وكالة المعارف باستنبول ١٩٥٥ م .

٤٦) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / لابن خلكان / طبعة دار صادر بيروت ١٣٩٨ هـ .